إنتقام الملكة

إنتقام الملكة (رواية)
ألكسندر ديماس "الأب"
تقديم ومراجعة: خالد عوض
الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ألكسندر ديماس "الأب". – تقديم ومراجعة: خالد عوض – إنتقام الملكة
– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
١٨٧ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٤ – ٧ – ٨٦٦١٧ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٦٣٥ / ٢٠٢٣

ألكسندر ديماس "الأب"

إنتقام الملكة

رواية

تقديم ومراجعة

خالد عوض

تقديم

هل كان ألكسندر ديماس روائيًّا؟

يبدو هذا السؤال غريبًا، فمن المعروف أن ألكسندر ديماس رِوائيٌّ فرنسيٌّ شَهير، ذاعَ صِيتُه في القرنِ التاسعَ عشرَ الميلاديّ من خلالِ ما قدَّمَه من مَسْرحياتٍ وروايات، تُرجِمَت إلى نحوِ مائةِ لغة، ووجدت فيها السينما العالميةُ مادةً ثريةً لمئاتِ الأفلامِ عبرَ قرنَيْنِ مِنَ الزمان. لكن المؤرخة الفرنسية "سيمون بيرتيير" تطرحه بثقة في مطلع كتابها الأخير «دوماس والفرسان الثلاثة»، والأغرب أنها وبلا تردد، تجيب بالنفي القاطع لتقول إن ديماس كان يرى نفسه من خلال مجالين أساسيين في الحياة هما: الكتابة المسرحية والنشاط السياسي.

وتذكر "سيمون بيرتيير" أن ملك فرنسا «لويس فيليب» سدّ أمام ألكسندر ديماس ذات يوم طريق السياسة عندما قال له: «أنت شاعر، فاكتب شعرًا»، ولم يكن الشعر، بالمعنى الدقيق هو مناط اهتمام ديماس، ولكنه كان يميل إلى المسرح. وهكذا أسهم هو، وفيكتور هوجو، بتنشيط المسرح الكلاسيكي الفرنسي. وإذا كان هوجو قد قدّم رائعته الشهيرة «هيرناني» فإن دوماس ثبّت قاعدة «الوحدات الثلاث» في المسرح عبر مجمل أعماله.

وتضيف المؤلفة أن تحوّلًا كبيرًا جرى في مسار ألكسندر دوماس في السنوات الأخيرة من حياته، حيث كانت عبقريته المسرحية قد دلّت على أنه بطريق النضوب. وقد كان دائمًا، حتى في تلك السنوات، يزدري في

أعماقه الرواية التاريخية، حيث كان يعتبرها نوعًا من «تزوير» التاريخ. لكن تلك المرحلة من الزمن عرفت حدثين كبيرين كان لهما أثرهما في دفعه لإعادة النظر في مواقفه. الحدثان المعنيان كانا شيوع الصحافة ذات التوزيع الكبير، بفضل تطوير تقنيات الطباعة بعد اختراع المطبعة. والحدث الثاني هو انتشار نوع جديد من الكتابة تمثّل في «الرواية على حلقات».

ويذكر أنه بمحض الصدفة وقع بين يدي ألكسندر ديماس كتابًا قديمًا يعود نشره إلى عام ١٧٠٠ تحت عنوان «مذكرات السيد أرتانيان». كان الكتاب مكتوبًا بشكل بالغ السوء، لكن ديماس اعتمد على ما جاء به من وقائع، وصاغ منها رائعة أدبية حقيقية هي «الفرسان الثلاثة».

وتضيف "سيمون بيرتيير" أن المشكلة الكبيرة التي واجهها ألكسندر دوماس في مشروعه «الروائي» كانت في أن «مخيلته» لم تكن تعمل سوى انطلاقًا من الواقع. هذا فضلًا عن أنه كان بحاجة للحديث قبل الكتابة. ذلك أن الكلام لديه هو الذي يحرر الكتابة. ومن هنا برزت في حياته شخصية أساسية فيما يتعلق بالتوثيق. وهي شخصية صديقه "أوجست ماكيه" الذي كان شريكًا له في تأليف الروايات الكبرى التي أنجزها ديماس في السنوات الأخيرة من حياته. ومنها رواية "الملكة مارجو" التي أصدرها ديماس بالتعاون مع أوجست ماكيه. في جزئين، صدر الجزء الأول في عام ١٨٤٤، أما الجزء الثاني فقد صدر في عام ١٨٤٦.

لقد عمل الرجلان معًا لمدة سبع سنوات وبشكل يومي. كان «ماكيه» يصوغ بضعة صفحات كي تصبح عبر قلم ألكسندر دوماس العشرات. لكن

تلك «الشراكة» التي استمرّت لسنوات انتهت إلى خلافات كبيرة وللمثول أمام المحاكم. ذلك أن «ماكيه» لم يكن يريد الاكتفاء بتقاسم ما يجنيه دوماس من «مؤلفاته»، ولكنه كان يريد أن يتقاسم معه المجد والشهرة أيضًا. بأن يظهر على غلاف الرواية اسمه مقترنًا باسم "ديماس".

وكان ألكسندر ديماس يعمل يوميًا ساعات طويلة قد تتجاوز أحيانًا إثني عشر ساعة. وكان يستخدم بالكتابة ريش الإوز وأوراقًا ذات لون أزرق من القطع الكبير. ولم يكن يستخدم علامات الترقيم لاقتناعه بأن ذلك يهدر بعض الوقت. وتؤكد "سيمون بيرتيير"، بالاستناد على إرفاق بعض صور الصفحات المكتوبة بخط دوماس، أنه كتب رواياته الكبرى دون توقف، بل إنه كان يكتب فيها كلها أحيانًا دفعة واحدة».

ديماس الأب:

إشتهر الكاتب الفرنسي ألكسندر ديماس الأب برواياته التاريخية ذات حس المغامرة. ولقبوه بالكبير تمييزًا له من ابنه الذي يحمل الاسم نفسه، وقد تُرجِمت أعماله إلى مائة لغة تقريبًا، جعلت منه أحد أكثر الكُتاب الفرنسيين شهرة على مستوى العالم، ومن أبرز أعماله: الكونت دي مونت كريستو، الفرسان الثلاثة، والتي نشرت كمسلسلات أدبية، وقد تم تحويل رواياته إلى أعمال سينمائية منذ أوائل القرن العشرين لما يقرب من مئتي فيلم.

ولد ألكسندر دوماس – الأب، في قرية تدعى فيلير كوتريتس، في سانت دومينيك، في الرابع والعشرين من شهر يوليو ١٨٠٢، ووالده الجنرال ألكسندر توماس ديفي دي لابيليتيرا، وكان جده "دافي دي لاباتري" نبيلًا

أرستقراطيًّا شديد الثراء، أشتهر بميله الشديد للمغامرة. وقد توجه الجد في أحد الأيام إلى جزيرة، ليصبح وكأنه الملك في مملكة من الزنوج الذين يعيشون في الجزيرة، وقد أنجبت له إحدى رعاياه السود – اسمها لويز دوماس – ابنه دوماس ألكسندر، وفوجىء النبيل بأن مولوده يحمل لون بشرة أمه السوداء، فلم يقبل أن يحمل ابنه دوماس اسمه.

وفيما بعد عندما دارت الأيام، بعد هزيمة نابليون، رفض الحفيد ألكسندر دوماس طلب أمه بالانتساب لاسم جده الأرستقراطي، وما يتبعه هذا من حصوله على حقوقه كاملة من حيث الثروة والمكانة، مفضلًا أن يحتفظ باسم دوماس المجهول. لذلك اضطر ألكسندر إلى العمل في وظائف عديدة ليؤمن قوت يومه، ومنها عمله كناسخ بأحد مكاتب موثقي العقود، وبالرغم من كراهيته للدراسة والتحصيل ومحاولات أمه العديدة معه لأن يكمل تعليمه الجامعي، فإن نهمه للقراءة كان شديدًا بشكل غريب، وظهر هذا في أثناء عمله كناسخ، مما أثار استياء صاحب العمل منه، ففضلًا عن انشغاله بالقراءة كان يستغل وسامته ليوقع في شباكه الفتيات الجميلات المترددات على مقر عمله. وقد ساعدته أصوله الأرستقراطية في أن يلتحق بخدمة الدوق أورليان، ومن بعده التحق ببلاط ملك فرنسا لويس فيليب.

الرحيل إلى باريس

ازداد ضيق ألكسندر ديماس بقريته وأوضاعه فيها تدريجيًّا، وشعر بأن البقاء في بلدة صغيرة كتلك التي يقيم فيها سوف يقضي على طموحاته، فرحل إلى باريس مغالبًا فقره بعزيمة قوية. وهناك مضت أيامه وكأنه يسير في

مفترق طرق، فأي طريق سيسلكه سيؤدي إلى مصير مختلف عما إذا سلك طريقًا غيره، إلى أن التقى بالصدفة بأحد الممثلين الفرنسيين المشهورين أيامها وهو تالما، نشأت بينهما صداقة قوية، واصطحبه معه إلى المسارح التي يمثل فوق خشباتها، ولما انجذب دوماس إلى أضواء المسارح وفكر في أن يحول القصص التي يكتبها ويرفضها الناشرون إلى مسرحيات، شجعه تالما، وساعده على تمثيلها، ولعب دور البطولة فيها، فعكف دوماس على كتابة المسرحيات والقصص، لكن لولا قوة عزيمته لما استطاع تحقيق النجاح، فقد قُبلت إحدى مسرحياته لتمثل على المسرح الفرنسي، وبدأ التجهيز لعرضها، ثم فوجئ قبيل الموعد المحدد للعرض بسحب مسرحيته، بحجة إعطاء الفرصة لكاتب كبير في السن لم يظفر من قبل بفرصة تمثيل إحدى مسرحياته.

إلا أن هذا لم يؤثر في عزيمته، فعمل وثابر حتى انتصر في النهاية بفضل مثابرته ودأبه، فبعدها كتب مسرحية أخرى، عن هنري الثالث، التي تعد من بدايات الأعمال الرومانسية في المسرح الفرنسي في ذلك الوقت، وقد حققت نجاحًا ساحقًا أتاح له شهرة ساعدته في نشر كتبه وفي تمثيل مسرحياته التالية، ولم ينسَ دوماس مغامراته العاطفية في غمار بحثه عن النجاح الأدبي والأمان المادي، فقد كان يستهويه اللهو فتعددت عشيقاته حتى اشتهر بأنه دونجوان أو زير نساء.

وتواصلت المغامرات والغراميات في حياته، فانتقل من عشيقة إلى أخرى، وتدهورت صحته من كثرة السهر واللهو والعمل، كما عمل بالسياسة لفترة، ولم يلبث أن ملها وهجرها، وفي إحدى نزواته قرر أن يكون رجل دين، فالتحق بالكنيسة لفترة لم تطل ثم هجرها عائدًا إلى الحياة التي يحبها، وفي عام ١٨٣٢، كانت نقطة التحول الثانية، فقد التقى بالممثلة إيدا فيرييه التي

وقفت لأول مرة على خشبة المسرح لتمثيل دور البطولة في مسرحيته "تيريزا"، وكانت إيدا عشيقته في البداية، ثم أحبها وتزوجها.

تزوير التاريخ

كان ألكسندر ديماس يزدري في أعماقه الرواية التاريخية؛ حيث كان يعتبرها نوعًا من تزوير التاريخ، كما كان ملولًا بطبعه، فلم يطق طويلًا حياة الاستقرار، فانفصل عن زوجته، وقرر أن يكف عن كتابة المسرحيات، وأن يكرس جهده للروايات، فعاد إلى سيرته الأولى مع الغراميات والمغامرات النسائية، وفي نفس الوقت اتجه إلى تأليف قصص المغامرات ذات الأصل التاريخي، وكانت رواية "الفرسان الثلاثة" هي أولى أعماله في هذا المجال، وصدرت في عام ١٨٤٤م، وفي العام التالي أصدر جزأها الثاني بعنوان "بعد عشرين عامًا". وكان الجزءا الثالث متمثلًا في رواية "الرجل ذو القناع الحديدي"، وتدور حول السجين الغامض المحبوس خلف قناع من الحديد في سجون الملك، وبها اكتملت ملحمة"الفرسان الثلاثة".

أما روايته الأشهر "الكونت دي مونت كريستو" فقد صدرت طبعتها الأولى في عام ١٨٤٦، وتوالت بعد ذلك رواياته ومنها: «الزنبقة السوداء» و«قلادة الملكة»، وظل يكتب حتى وفاته، لم يتمكن دوما من إنهاء آخر رواياته "فارس سانت هيرمين" بسبب وفاته، وقام الباحث كلود شوب باستكمالها نظرًا لتخصصه في أدب ألكسندر دوماس، وتم نشر الرواية عام ٢٠٠٥ لتُصبح من أكثر الروايات مبيعًا، نُشرت الرواية أيضًا باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٨ تحت عنوان "الفارس الأخير".

الخروج من باريس

شهدت الفترة ما بين ١٨٤٠– ١٨٤٨ ازدهارًا أدبيًّا كبيرًا بالنسبة لدوماس، إلا أنه لم يحصل على التقدير اللائق به بين الأدباء إلا بحلول عام ١٨٨٠م، أي بعد وفاته بحوالي عشر سنوات. وكان شعوره بالظلم وعدم التقدير دافعًا له على مواصلة الكتابة، فنشر ما يزيد على المائة وعشرين كتابًا، وقيل إن عدد صفحاتها تجاوز المائة ألف صفحة، فقد ظل لسنوات طوال يكتب لمدة إثني عشر ساعة يوميًّا، كذلك دفعه التجاهل إلى السفر خارج فرنسا، فقام برحلات إلى الشرق وزار مصر والشام، كما أقام لفترة في روسيا، وألهمته تلك الفترة أحداث روايته "سيد المبارزة"، وفيها انتقد الأوضاع في روسيا، وهو الأمر الذي أغضب القيصر نيكولاس الأول، فقرر منع دوماس من دخول روسيا.

كذلك تأثر ألكسندر دوماس كثيرًا برحلته الطويلة إلى الشرق، فقد امتلأت مخيلته بأشياء مثل المآذن، ولمعان الشموس البرتقالية فوق صحاري سيناء، وأشجار النخيل الخضراء والسماوات الزرقاء الصافية، والأطلال القديمة، وبصمات الحملة الفرنسية على مصر، والتي بدت ملامحها في العديد من أعماله، وتولدت عنها العديد من حكايات السفر التي نشرها في عدة كتب ومنها «خمسة عشر يومًا في سيناء»، في ١٨٣٩، و«رحلة الحاج عبد الحميد إلى المدينة ومكة المكرمة» بين ١٨٥٦ و١٨٥٧، و«جزيرة العرب السعيدة» ١٨٦٠. وفي عام ١٨٦٤ عاد دوماس إلى باريس، وظل بها حتى توفي في الخامس من ديسمبر عام ١٨٧٠م، بعد أن ترك تراثًا روائيًّا متميزًا ما زالت الأيام تكشف لنا عن المزيد منه بمرورها. ودُفِن بمسقط رأسه في فيليه كوتريه في مقاطعة آن بروفانس.

وقد أدّى التغيّر في التوجهات الأدبية إلى انخفاض شعبيته، في أواخر القرن العشرين، حتى قام باحثون مثل ريجينالد هامل وكلود شوب بدراسات أسفَرَت عن إعادة تقييم لأعماله الأدبية، كما أسفرت عن العثور على عدد من أعماله المفقودة، ومن أهمها رواية "حرب النساء".

وقد تعرض دوماس في مسرحياته وراوياته لشخصيات حقيقية أثرت فيه بشكل أو بآخر، فجعلها ضمن شخوص الرواية، وإن أضاف إليها بعض التفاصيل التي تفرضها ضروريات البناء الروائي، وقد تفوقت مسرحيات دوماس على رواياته، واحتلت مكانة متميزة في سجل الأدب الفرنسي، وتنقسم المسرحية عنده إلى نوعين المسرحية التاريخية والمسرحية المعاصرة والتي استقى أحداثها من خلال الواقع المعاصر له.

وفي عهد الرئيس الفرنسي الأسبق جاك شيراك، وتحديدًا في عام ٢٠٠٢ وخلال الاحتفالات التي صاحبت الذِكرى المِئوية الثانِية لميلاد دوماس، تم نقل رفاته في تابوت جديد مغطى بقماش مخملي إلى مقبرة العظماء في البانثيون في جنازة رسمية نقلها التلفزيون، وفي حراسة أربعة حراس يرتدون ملابس مثل ملابس الفرسان في ملحمته الشهيرة "الفرسان الثلاثه" ، كما تحول بيته خارِج باريس إلى متحف.

خالد عوض

الفصل الأول

في صباح يوم الإثنين، الموافق الثامن عشر من شباط ١٥٧٢ كان قصر اللوفر يرتدي حلة العيد، والبلاط على استعداد للاحتفال بزواج "مارغريت دي فالوا" ابنة الملك هنري الثاني، وشقيقة الملك شارل التاسع، من هنري دي بوربون ملك آل "نافار"، وقد أدهش هذا الحدث العالم كله، وراح الجميع يتساءلون كيف يتناسى الأمير "دي كوندي" موت والده الذي قتله "مونتكيو" في "جرنال" فيغض الطرف عن وجود الدوق "انجو" شقيق الملك؟ وكيف يتجاهل الدوق "دي كيز" موت والده أيضًا الذي فتك به "بولتر دي ميريه" في "أورليان" فيتجاهل هو الآخر وجود الأميرال "كوليني"؟

وهنالك ما هو أكثر فظاعة من ذلك إذ إن "جان دي نافار" الباسلة زوجة "انطوان دي بوريون" الضعيف المراس التي دبرت لولدها هنري هذا الزواج الملكي، توفيت منذ شهرين بعد أن مهدت السبيل لهذا الحدث التاريخي، وانتشرت الإشاعات التي تتناول هذا الموت المفاجئ بشتى الأقاويل والأحاديث، فهنا يتمتمون سرًّا وهنالك يقولون علانية إن "جان" اكتشفت سرًّا رهيبًا يفضح "كاترين دي مادسي"، فعمدت هذه الأخيرة إلى إهداء الأولى قفازًا ذا رائحة مسمومة صنعه المدعو "رينيه" خصيصًا لها. ولشدة انتشار هذه الإشاعة حول موت الملكة الكبيرة، طلب ولدها تشريح جثتها تحت إشراف طبيبين أحدهما الطبيب الذائع الصيت "امبرواز باريه"، وتمت عملية التشريح، ولكن دون الدماغ. ولما كانت "جان دي نافار" قد ماتت

على أثر تنشقها السم فإن آثار الجريمة لا يمكن الاهتداء إليها إلا في الدماغ!

ليس هذا كل شيء، ولما كان العروسان ينتميان إلى طائفتين مختلفتين، الكاثوليكية والبروتستانية، كان لابد من تصريح بابوي من خليفة المسيح "غريغوار الثامن"، وتأخر التصريح مما جعل الملكة المغفور لها في قلق دائم، وإذ أعربت للملك شارل التاسع عن مخاوفها أجابها قائلًا:

– لا تقلقي، يا عزيزتي، سوف ينتهي الأمر خيرًا، إن شاء الله.

وقد تسرب هذا الخبر من قصر اللوفر لينتشر في جميع أرجاء المدينة كلها، فصعق بعضهم فرحًا، والبعض الآخر توجس شرًّا، ثم إن الملك كان على خصام عنيف مع الأميرال كوليني منذ خمس أو ست سنوات خلت، حتى أنه عرض مكافأة قدرها خمسة الآف ليرة ذهبية لمن يأتيه برأسه أصبح الآن لا يقسم إلا باسمه، ويدعوه "أبي" مصرحًا علنا بأنه سيسند إليه "قيادة الحرب"، وهذا ما جعل "كاترين دي مادسي" نفسها في قلق شديد، وما كان قلقها هذا دون سبب، إذ إن الملك شارل التاسع صرح للأميرال بشأن حرب "قلندرا" يقول:

– يا أبي، يجب أن نجهل الملكة كل شيء لئلا تفسد علينا خطتنا بثرثرتها.

ومهما كان "كوليني" عاقلًا وخبيرًا في شؤون الحياة، مع ذلك لم يستطع كتمان أمر هذه الثقة العمياء يخصه إياها الملك فشاع خبرها في كل مكان، حتى إن إحدى القرويات ارتمت على قدمي الملك وهو في طريقه إلى باريس قائلة له: آه يا سيدي، يا معلمنا الصالح، لا تذهب إلى باريس لأنك إن فعلت تمت أنت ومن معك.

عبثًا، كان الجميع يفتشون بين الحضور عن الماريشال "مونتمورنسي" الذي لم يغره أي وعد ليسير في موكب الهازجين، فظل منعزلًا في قصره متذرعًا بالحداد على الشريف والده "ان دي مونتمورنسي" الذي أطلق عليه النار "روبرت ستيورت" فارداه قتيلًا في موقعة "سان دانيس"، ولما كان قد مضى على هذا الحادث مدة ثلاث سنوات، ولما كانت المسايرة فضيلة في ذاك العصر، فلقد ظن الجميع خطأ أن سبب انعزاله لم يكن الحداد بل لابد أن هنالك أمرًا آخر.

وبين هذا الجمع الغفير، كان فتى في التاسعة عشرة من عمره يترقب الأحداث بعين يقظة. وهذا الفتى هو الأمير "دي بران" سابقًا وملك "آل نافار" حاليًا، ولسوف يصبح هنري الرابع في المستقبل، كانت غيمة من الحزن والأسى تخيم على جبينه من وقت إلى آخر، فهو ولا شك، ما زال يذكر أن والدته توفيت منذ شهرين، وأن كثيرين يدعون بأنها ماتت مسمومة. ولكن هذه الغيمة كانت عابرة لأن الذين كانوا يتحدثون إليه ويقدمون له التهاني ويتأبطون ذراعه، هؤلاء أنفسهم هم قتلة الملكة "جان".

وعلى بضع خطوات من ملك "آل نافار" كان الدوق "دي كيز" الشاب المتحفظ أكثر من الأول، كان يتحدث إلى "تاكيني" فهو قد نال ما كان لأبيه من الشهرة، ولما يزل في الثانية والعشرين من عمره، حتى إن الناس كانوا يقولون عنه: "إن كل الأمراء بالنسبة له خدم"، هذا كان زعيم الكاثوليك كما كان هنري زعيم البروتستانت. ولقد كان يحمل لقب أمير "جوانفيل" سابقًا وخاض أول معركة في حصار "أورليان" مع أبيه الذي لفظ نفسه الأخير بين ذراعيه مشيرًا إلى ولده بأن الأميرال "كوليني" هو قاتله.

عندئذ، أقسم الدوق الشاب علنًا كما فعل هنيبعل بأن ينتقم من الأميرال وعائلته واتباعه دون هوادة حتى لا يبقى على وجه الأرض كافر.

كان من العجب إذن أن نرى هذا الأمير الذي لا يحنث بوعده عادة يمد يده إلى الذين أقسم على الانتقام منهم، ثم أن يتحدث إلى صهره قاتل أبيه، حقًّا، كانت هذه السهرة مليئة بالمفاجآت

أما المراقب الشديد المراس لكل هذه المتناقضات فهو الشعب الذي لم يكن ليقر له قرار.

فها هي الخطيبة تخرج إلى البهو تصحبها دوقة "نفير" الحسناء أفضل صديقة لها. ويقودها أخوها شارل التاسع مقدمًا إياها إلى ضيوفه الرسميين، هذه الخطيبة هي ابنة هنري الثاني، هي جوهرة في تاج فرنسا، إنها "مارغريت دي فالوا" التي لا يضاهي جمالها جمال، حتى إن أحد الساسة الإيطاليين قال عنها: "إذا شاهدت البلاط الفرنسي ولم تر مارغريت ذي فالوا فكأنك لم تشاهد فرنسا ولا بلاطها".

وأخيرًا قال الملك شارل التاسع للمدعوين، وشفتاه يعلوهما الاصفرار:

– إني إذ أزوج أختي "مارجو" من "هنري دي نافار" فإنما أنا أقدم قلبي إلى كل رعاياي في المملكة.

كان السيد "دي كيز"، يتحدث إلى "تاليني" وهو يختلس النظرات من وقت إلى آخر ملتفتًا إلى ملكة "الغافار"، حتى إذا رأى الفرصة مؤاتية، اتجه نحوها وانحنى أمامها قائلًا لها باللاتينية:

– هائنذا.

فانحنت "مارغريت" بدورها للدوق الفتى وهمست مجيبة وهي ترفع رأسها:

– هذه الليلة كالعادة.

حدث ذلك دون أن يدري أحد بما جرى حتى ملك النافار نفسه، الذي كان يحدق دون انقطاع بالسيدة دي سوف، واسمها الكامل "شارلوت دي بون" زوجة "سيمون دي فيز، بارون دي سوف" وإحدى محظيات "كاترين دي مادسي" وأقدر معوانة لتلك الملكة تنفث سموم الحب في وجه أعدائها عندما لا تستطيع أن تسقيهم السم الحقيقي.

ولم تشأ في البدء أن تحضر حفلة الزفاف حسدًا من منافستها، ولكن الملكة "كاترين دي مادسي" كتبت لها بضعة أسطر وأرسلتها مع زوجها "بارون دي سوف" فلم تتأخر عندئذ عن المجيء، وكان هنري قبل حضورها حزينًا كئيبًا حتى إذا رآها تدخل إلى البهو وحدها انفرجت أساريره. وإذ كان قد فقد الأمل من مجيئها، راح يستعد للتودد إلى تلك المخلوقة المحبوبة التي قضى عليها القدر الغاشم لتكون له زوجة. وما إن اتجه نحو هذه الأخيرة حتى لاحت أمامه "شارلوت" فوقف مسمرًا في مكانه. وبدلًا من أن يكمل سيره نحو زوجته، تقدم بحركة تردد عجيبة نحو السيدة "دي سوف" وجرى بينهما الحديث التالي خفية عن الناس كما فعل السيد "دي كيز" "ومارغريت دي فالوا" بالتمام.

قال لها:

– آه يا عزيزتي، لقد جئت بعد أن قيل إنك مريضة ففقدت الأمل من مشاهدتك.

فردت:

– يا صاحب الجلالة، هل تريد أن تقول إن غيابي شغلك كثيرًا؟

– بكل تأكيد، ألا تعلمين أنك كالشمس بالنسبة لي في أثناء النهار، وكالنجمة الهادية في أثناء الليل؟ لقد كنت في ظلمة خانقة قبل مجيئك، وإذ بدا لي وجهك أضاء الدنيا في وجهي.

– أريد برهانًا على ذلك.

فأجابها هنري وهو يرمقها بنظرة ملتهبة حبًّا:

– سأعطيك البرهان.

– لا. لا. مستحيل أن تدع هذه السعادة تفوتك.

– في هذا البلاط أربعة يدعون هنري، هنري دي فرانس، هنري دي كوندا، هنري دي كيز، ولكن هنري دي نافار ليس إلا واحدًا.

– ثم ماذا؟

– وإذا قضى هنري نافار ليلته هذه إلى جانبك؟

– ليتك تفعل.

– سأفعل قسمًا بشرفي.

فرفعت السيدة دي سوف عينيها الملتمعتين بشرارات الهوى وابتسمت له فامتلأ قلبه سعادة فأضاف:

– ما رأيك؟

– تأكدت الآن أنك تحبني.

– ستقولين دائمًا هكذا.

تمتمت كاترين:

– ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

– أليست عندك خادمة أو وصيفة مخلصة تثقين بها؟

– أجل "داريول" التي لو قطعوها إربا إربا لما خانتني أنها كنز ثمين، بالنسبة لي.

– قولي لهذه الفتاة بأني سأوفر لها ثروة طائلة عندما أصبح ملك فرنسا كما يتنبأ لي المنجمون.

– حسنًا ، وماذا تريد من "داربول"؟

– أليست غرفتك فوق غرفتي.

– أجل.

– دعيها تنتظر وراء الباب. فندق ثلاث مرات بلطف، فتفتح وعندئذ، أقدم لك البرهان الذي تحدثنا عنه.

– وإذا أتيح لي أن أحمل كلامك على محمل الكذب؟!

– جربي يا عزيزتي، جربي.

– إني لا أصدق نفسي..

– صدقي، إن النساء لسن قويات إلا بعد هزيمتهن.

– ما زلت احتفظ بوعدك لداربول يوم تصبح ملك فرنسا.

قهقة هنري فرحًا.. وبينما هو يطلق قهقهته هذه كانت ملكة النافار تجيب الدوق دي "غيز" بهذه العبارة المألوفة بينهما:

– هذه الليلة، كالعادة.

وابتعد هنري عن السيدة "دي سوف" سعيدًا مثلما ابتعد الدوق "دي كيز" عن مارغريت "دي فالوا".

وبعد مرور ساعة من الزمن على هذا المشهد المزدوج، انسحب الملك شارل والملكة الأم إلى شقتيهما ثم شرع المدعوون يخلون الغرف رويدًا رويدًا وتبعهم الزعماء الأميرال، والأمير دي كوندي من جهة، ثم هنري دي كيز والأسياد والآخرون من جهة ثانية تصحبهم هتافات الشعب. أما مارغريت دي فالوا وهنري نافار والسيدة دي سوف فقد لزموا القصر.

الفصل الثاني

اصطصحب الدوق "دي كيز" قريبته دوقة نيفير إلى الفندق الكائن في شارع "شوم" تجاه شارع "براك". وبعد أن سلمها لوصيفاتها، انتقل إلى غرفته ليبدل ملابسه فيرتدي معطف الليل ويتدجج بسلاحه، وإذا به يرى ورقة مدسوسة في غمد خنجره.

فتحها وقرأ فيها:

"آمل أن لا يعود السيد دي كيز إلى قصر اللوفر. أما وإذا أراد العودة فليتحذ حذره ويحمل كامل سلاحه".

التفت الدوق إلى خادمه المعلم "روبن" وقال:

– إنذار غريب.. فهل لك أن تذكر لي أسماء الأشخاص الذين دخلوا إلى هنا في أثناء غيابي؟

– واحد فقط، يا سيدي.

– ومن هو؟

– السيد "دي جامت".

– يبدو أني عرفته من خطه، وهل أنت متأكد منه؟ هل رأيته؟

– بل تحدثت إليه.

– حسنًا سأتبع نصيحته... إلي بسترتي وسيفي.

وارتدى الدوق سترته، واحتذى الجزمة واعتمر فبعته من المخمل الأسود، ووضع الخنجر في سيره وسلم سيفه إلى أحد خدمه طالبًا منه مرافقته ثم سار نحو قصر اللوفر وكانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا.

ومع أن الحوادث كثيرة في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، لم يقع أي حادث للأمير المغامر ووصل سليمًا معافى إلى قصر اللوفر حيث الأضواء مطفأة تمامًا، وغيمة من الصمت والظلام مخيمة على المكان برمته.

أمام القصر الملكي، تمتد حفرة عميقة تؤدي إلى أكثر غرف الأمراء الساكنين في القصر، وغرفة مارغريت كائنة في الطبقة الأولى، فما كان من الدوق إلا أن نزل في الحفرة، وإذا بحركة خفيفة تتصاعد من الدور الأرضي، ويد تظهر من النافذة تتدلى منها ربطة من حرير.

سألها الدوق بصوت منخفض:

– هل أنت "جيون"؟

فأجابت بصوت أكثر انخفاضًا.

– نعم يا سيدي.

– وأين مارغريت؟

– تنتظرك يا سيدي.

– حسنًا .

أشار الدوق إلى خادمه ففتح معطفه وأخرج من تحته سلمًا صغيرًا من الحبال علق الأمير طرفه في الربطة، وشدت "جيون" بالسلم بعد أن حكمت

ربطه، والأمير وضع سيفه إلى جانبه وتسلق السلم بأمان، فعاد كل شيء إلى حالته الطبيعية، وانغلقت النافذة، والخادم وثق من أن سيده دخل إلى القصر بسلام فذهب لينام على العشب في الحفرة تحت ظل الحاجز.

كان الظلام مدلهمًا، وقطرات من الماء تنهمر باردة سميكة والغيوم كأنها مليئة بالكبريت والكهرباء. وكان الدوق "دي كيز" يتبع دليلته التي لم تكن إلا ابنة "جاك دي مانتينون" مارشال فرنسا وموضع سر مارغريت، حتى وصلا إلى درج لولبي كائن طي الحائط ينتهي بباب سري يؤدي إلى غرفة مارغريت. ولما وصلا إلى الغرفة، توقفت "جيون" وسألت الدوق بصوت منخفض:

– هل أتيت بما طلبته منك الملكة؟

فأجاب الدوق:

– أجل ولن أسلمه إلا إلى الملكة بنفسها.

فرد صوت منبعث من أعماق الظلمة ارتجف الدوق عند سماعه مع أنه تبينه، وعرف أنه صوت الملكة التي لم تعد تطيق صبرًا فهرولت لاستقباله:

– تعال دون أن نضيع دقيقة واحدة.

فقال الدوق:

– ها أنا ذا يا مولاتي.

وقادته إلى غرفتها الخاصة. بينما "جيون" تراقب المكان خوفًا من أعين الرقباء. وقالت الملكة للدوق بعد أن أصبحا بأمان:

– هل أنت مسرور؟

– مسرور! ولماذا؟

فأجابت الملكة بلهجة الاحتقار:

– ألا يسرك أني الآن لرجل لم يأت في ليلة زفافنا ليشكرني على الشرف الذي أوليته إياه، وليس ذلك لأني اخترته أنا زوجًا لي، بل لأن الظروف جعلتني أرضى به.

قال الدوق بلهجة الحزن:

– إطمئني.. سيأتي.. ولاسيما إذا كنت ترغبين في ذلك.

فصاحت الملكة:

– تقول ذلك بفمك وتخفي بقلبك ما يعاكس قولك. فلو كنت أرغب في أن يأتيني فلم دعوتك للمجيء إلى اللوفر.

– رجوتني لآتي إلى اللوفر لأن لك رغبة في لمس معالم الماضي، هذا الماضي الذي لم يكن يعيش في قلبي فقط، بل وفي هذه الصندوقة الفضية التي أتيتك بها.

فقالت مارغريت وهي تتأمل الدوق:

– إنك تبدو لي كالتلميذ وليس كالأمير.. أنا أنكر حبك؟ أنا أطفئ نار هواك؟ ولربما انطفأت هذه النار ولكن ردة الفعل باقية.. كلا.. كلا.. أيها الدوق، يمكنك أن تحتفظ برسائل مارغريت والصندوق الذي أعطتك إياه. وهي لا تطلب منك إلا رسالة واحدة من هذه الرسائل كلها، وذلك لأنها تسبب لك خطرًا أكثر مما تسببه لها.

فقال الدوق:

–كل شيء هو لك، فاختاري أية رسالة شئت.

فأمسكت مارغريت الصندوق المفتوح أمامها، وقلبته رأسًا على عقب ثم التفتت إلى الدوق، وقالت:

– الرسالة التي أبحث عنها غير موجودة، فهل أضعتها؟

– أية رسالة تريدين؟

– تلك التي أقول لك فيها: تتزوج دون تأخير.

– لكي تعتذري عن عدم إخلاصك؟

–كلا. بل لأنقذ حياتك.. تلك التي قلت لك فيها إن الملك عندما علم بحبنا، والجهود التي كنت أبذلها لكي أحول بينك وبين زواجك من أميرة البرتغال، استدعى أخاك غير الشرعي، وقال له وهو يريه سيفين: بهذا اقتل هنري دي أو أقتلك بذاك غدًا، هذه الرسالة أين هي؟

– هذه هي.

قال الدوق وهو يخرج الرسالة من صدره فانتزعتها مارغريت من بين يديه، وفضتها فانفرجت أساريرها وأدنتها من الشمعة وأحرقتها، وخوفًا من أن يعثر أحد على رمادها راحت تسحقها برجليها، وكان الدوق في أثناء ذلك يرافق كل حركة من حركاتها ثم قال:

– هل أنت مسرورة الآن؟

– نعم. أما الآن وأنت قد تزوجت من الأميرة "بورسان" فسيسامحني أخي على حبي لك، ولكنه لن يغفر إفشاء مثل هذا السر الذي بحت لك به، فقال الدوق:

هذا صحيح لقد كنت تحبينني في ذاك الوقت.

– وما زلت أحبك، يا هنري، أكثر من أي وقت آخر.

– وأنت؟

– أجل أنا... لم أكن أبدًا من قبل بحاجة إلى صديق مخلص وأمين كما أنا اليوم... ملكة، ولكن لا عرش لي... امرأة، ولكن لا زوج لي.

فهز الأمير برأسه، وعلى وجهه سحابة من الحزن:

– قلت لك وأكرر، يا هنري، بأن زوجي يكرهني بل يحتقرني. ووجودك في الغرفة التي يجب أن يكون هو فيها دليل على ذلك الحقد والاحتقار.

– لم يحن الوقت بعد، لابد له من توديع رجاله.. إذا لم يأت حتى الآن فهو آت، لا محالة.

فقالت مارغريت باحتقار بالغ:

– وأنا أقول لك بأنه لن يأتي

وإذا "بجيون" تصيح على الباب:

– ملك النافار، يا سيدتي، يخرج من غرفته.

فصاح الدوق:

– كنت واثقًا من أنه سيأتي.

قالت مارغريت وهي تمسك بيد الكونت:

– سترى، يا هنري، إذا كنت امرأة تعرف كيف تحافظ على عهدها ويمكن الركون إليها. ادخل إلى هذه الغرفة.

– دعيني أخرج من هنا، إذا كان هنالك من مجال للخروج.

– أنت مجنون.. قلت لك: ادخل.. وسأجيب أنا كما يجب.

ودفعت مارغريت بالدوق إلى الغرفة، وما كاد الباب ينغلق وراء الأمير حتى ظهر ملك النافار على عتبة الباب وهو يبتسم، ويرافقه خادمان يحملان ثمانية قناديل من الشمع الأصفر، وقدمت مارغريت تحية إجلال عميقة كي تخفي وراءها ارتباكها.

قال ملك النافار:

– لست في سريرك حتى الآن، يا سيدتي؟ أتراك تنتظرينني؟

فأجابت:

– كلا، يا سيدي، لقد قلت لي بالأمس.. كنت تعلمين جيدًا أن زواجنا معاهدة سياسية، وأنك لن تجبري على فعل أي شئ.

– ولكن هذا لا يمنع من أن نتحدث قليلًا، أغلقي الباب يا جيون، ودعينا وحدنا.

كانت مارغريت جالسة فوقفت وأومأت بيدها كما لو أنها تصدر أمرها للخادمة بالبقاء.فسألها الملك:

– هل أدعو وصيفاتك، سأفعل ذلك إذا شئت مع أني أصارحك القول بأني أفضل، إذا شئت أن أحدثك بأمر، أن نكون وحدنا.

وهم "ملك النافار" أن يتقدم نحو الغرفة، فاندفعت مارغريت أمامه بقوة، وقالت:

– لا فائدة من ذلك، يا سيدي، فإني مستعدة بأن أستمع إليك. ألقى ملك النافار نظرة سريعة وعميقة على الغرفة كما لو كان يريد أن يدخل إلى أعماق الغرفة المظلمة بالرغم من الباب الموصد في وجهه، ثم حول نظره نحو امرأة التي علا الاصفرار وجهها خوفًا ثم قال بصوت هادئ:

– إذن، لنتحدث قليلًا.

فقالت المرأة وهي ترتمي على المقعد الذي أشار إليه زوجها:

– كما يحلو لك، يا صاحب الجلالة.

وجلس الملك إلى جانبها، وأضاف يقول:

– مهما أشيع عن زواجنا، أظن أن هذا القران مناسب لي ولك. يجب أن نتعامل كحليفين مخلصين لأننا أقسمنا اليوم الإيمان المغلظة أمام الله تعالى. أليس هذا رأيك؟

– بدون شك، يا سيدي.

– إني ما زلت فتيًّا ولم أسبب الأذى لأحد، مع ذلك لي عدد كبير من

الأعداء. في أي محل من نفسي أضع تلك التي تحمل اسمي، والتي أقسمت الإخلاص لي على عتبة الهيكل المقدس؟

– وكيف يصل بك تفكيرك إلى هذا الحد؟

– لا أفكر بشيء، يا سيدي، آمل بل أريد أن أتأكد من أن أملي ثابت إذ من الأكيد بأن زواجنا ليس إلا ادعاء أو فخا.

فارتجفت مارغريت تقول في نفسها: هذه الفكرة أيضًا راودته.

وأكمل هنري ملك الناقار يقول:

– والآن، أيهما أصح الأدعاء أم الفخ؟ الملك يكرهني، ودوق أنجو حاقد عليَّ ودوق النسون يمقتني، وكاترين دي مادسيس كانت تكره أمي إلى حد لا يمكنها معه إلا أن تكرهني أنا أيضًا.

– آه يا سيدي، ماذا تقول؟

فتابع الملك:

– الحقيقة يا سيدتي، أريد أن لا يظن أحد بأن لي يدًا باغتيال السيد مواي وبقتل والدتي بالسم، وأود أن يكون هنا من يسمعني.

فأجابته مارغريت بحماسة وبهدوء تام وبسمة عميقة:

– تعرف جيدًا أن لا أحد هنا سوى أنا وأنت.

– كنت أقول لك بأني مهدد من كل جهة، من الملك ودوق النسون ودوق انجو والملكة الأم ودوق دي كيز ودوق ما بين وكردينال لورين أمام

كل هذه التهديدات التي لن تتأخر لتتحول إلى هجومات، يمكنني أن أدافع عن نفسي بمساعدتك لأنك محبوبة من كل هؤلاء الأشخاص الذين يكرهونني، فقالت مارغريت:

– أنا؟

فأجابها ملك النافار بعذوبة فائقة:

– نعم. الملك شارل يحبك وكذلك دوق النسون يحبك، وأصر على هذه الكلمة، والملكة كاترين تحبك وأخيرًا، دوق دي كيز يحبك.

فتمتمت مارغريت:

– سيدي!

– ما يمنع أن يحبك هؤلاء الناس جميعًا ؟ إن الذين ذكرت أسماءهم هم أخوتك أو أهلك

فأجابت مارغريت بشيء من الضيق.

– إلى أين تريد أن تصل بحديثك، يا سيدي؟

– أريد أن أقول إذا كنت حليفتي تمكنت من مجابهة الأخطار، أما إذا كنت عدوتي فإني هالك.

– عدوتك! كلا! أبدًا.

وتراجعت مارغريت ومدت يدها للملك، فأخذها وقبلها بلطف ثم قال:

– أصدقك يا سيدتي، وأقبل بك حليفة لقد زوجونا دون أن نحب بعضنا

ودون استشارتنا فسنكون إذن حليفين لا أكثر ولا أقل.

– نعم. يا سيدي.

– إنك لا تحبينني، ولكنك امرأة شريفة.

– ماذا تريد أن تقول، يا سيدي؟

– أعرف الآن أن أحدًا مختبئ هنا، وأنك زوجة غير أمينة، ولكنك حليفة مخلصة وأصارحك بأني احتاج للإخلاص في السياسة أكثر من الحب.

فتمتمت مارغريت مرتبكة:

– سيدي!

– سنتكلم عن كل ذلك فيما بعد، عندما تصبح عرى التعارف وثيقة بيننا فاسترحي إذن، وليلة سعيدة.

عندئذ اتجه ملك النافار نحو الباب وهو يقول:

– شكرًا يا مارغريت، أنت ابنة مخلصة لفرنسا إني ذاهب مطمئن البال، أنا خسرت حبك لكن ربحت صداقتك. إني اعتمد عليك كما يمكنك أن تعتمدى عليَّ، إلى اللقاء.

وشرع يتمتم وهو يجتاز الممشى:

– من عندها، يا ترى؟ الملك أم دوق انجر؟ دوق النسون أم دوق دي كيز؟ أم أخ أو عشيق؟ أم هذا أو ذاك؟ أو لم أضرب موعدًا مع السيدة دي سوف؟ أو ليست داربول بانتظاري؟ ولكن مارغريت كما يصفها شارل التاسع، امرأة رائعة.

وبخطى متثاقلة صعد هنري ملك النافار درجات السلم الذي يؤدي إلى غرفة السيد سوف، ورافقته مارغريت بنظراتها حتى اختفى ثم دخلت إلى غرفتها فرأت الدوق على باب الغرفة مما أشعرها المشهد بوخز الضمير.

فقال لها الدوق:

– إن مارغريت حيادية، اليوم.. وستكون عدوة بعد ثمانية أيام.

– هل سمعت؟

– وماذا تريدين مني أن أفعل في الغرفة؟

– أو لم أتصرف كما يجب أن تصرف ملكة النافار.

– كلا بل عكس ما يجب أن تتصرف عشيقة دوق دي كيز.

– يمكنني أن لا أحب زوجي، ولكن لا أحد يمكنه أن يكرهني على خيانتي... هل تخون أنت الأميرة بورسيان، زوجتك؟

– إنك لا تحبينني كما كنت في السابق فتخبرينني بما يقرره الملك بشأني وشأن أتباعي.

– كان الملك قويًّا وكنتم ضعفاء. وهنري ضعيف وأنتم أقوياء، إني ألعب دائمًا نفس الدور.

– بل تنتقلين من معسكر إلى آخر.

– هذا حق اكتسبته عندما أنقذت حياتك.

حسنًا سأنقذ حياتك مرة إذا سنحت لي الفرصة ونصبح متساويين. ثم

انحنى الدوق وخرج دون أن تبدر عن مارغريت أية حركة لمنعه من الذهاب، والتقى بجيبون في الغرفة المجاورة فرافقته إلى النافذة التي صعد منها فنزل وسار مع خادمه إلى فندق دي كيز، وفي أثناء ذلك كانت مارغريت واقفة أمام النافذة وهي غارقة في حلم عميق وهي تتمتم:

– يا لها من ليلة زفاف زوجي هرب مني وعشيقي تركني.

وأفاقت من أفكارها على صوت صبي يغني مارًا تحت النافذة، كانت مارغريت تستمع إلى الأغنية الغرامية وهي تبتسم بكآبة، وعندما اختفى صوت الصبي أغلقت النافذة ونادت جيون لتساعدها على الانتقال إلى سريرها.

الفصل الثالث

إمتلأت الأيام التالية بالأفراح، وكان أن دعا الملك شارل التاسع لتناول الفطور معه كلًّا من هنري دي نافار والدوق دي كيز. وعند الانتهاء من الطعام دخل معهما إلى غرفته شارحًا لهما كيف اخترع هو نفسه فخًّا للذئاب، وإذا به يسأل فجأة:

– ألا يأتي الأميرال هذا المساء؟ من رآه اليوم؟ ومن يمكنه يمدني بأخباره؟

فقال ملك النافار:

– إذا كان جلالة الملك قلقًا بشأن صحته فإني أطمئنك خيرًا رأيته صباحًا في الساعة السادسة، وفي المساء عند الساعة السابعة.

ثم تحدثا عن قضية الفلندر، فراح كل من ملك النافار والدوق دي كيز يقدم رجاله ويعرض خدماته للملك، وكان لامول بين هؤلاء الرجال الذين ذكرهم ملك النافار، وفجأة، دخل الأميرال، وكان الملك قد سمح له بالدخول عليه دون استئذان، فاستقبله الملك بكل ترحاب قائلًا:

– آه هو ذا الأميرال، نحن نتكلم عن الحروب والأبطال وإذا به يأتي، صهري ملك النافار وابن عمي الدوق كيز ينتظران مددًا لجيشك.

فقال الأميرال:

– وهل سيصل هذا المدد؟

فأجاب ملك النافار.

– هل لديك أخبار؟

– نعم، السيد دي لامول كان بالأمس في أورليان وسيكون في باريس غدًا أو بعد غد.

عندئذ توجه الملك إلى ملك النافار والدوق دي كيز:

– يمكنكما الخروج، فإني أود التحدث إلى الأميرال على انفراد.

فخرجا ملك النافار أولًا، ثم تبعه الدوق دي كيز وقد أدى الواحد للآخر تحية فاترة، واقترب الملك شارل التاسع من الأميرال كوليني وقال له:

– إني أخشى من كل هؤلاء الذين يحيطون بي، أنت تعلم جيدًا أنه ليس في فرنسا فرنسيون أقحاح سوى أنا وأنت وملك النافار، أما أنا فإني ألازم العرش ولا أنزل عنه إلا للذهاب إلى الصيد، وصهري ملك النافار ما زال فتيًّا ولم تحنكه الأيام بعد، ولم يبق إلا أنت ذلك الشجاع كيوليوس قيصر والحكيم كيلاطو، وإني لا أعلم ماذا فعل؟ هل احتفظ بك مستشارًا لي أم أرسلك كقائد للجيوش إذا كنت مستشاري فمن يقود الجنود؟ وإذا كنت قائدًا فمن يكون مستشاري؟

فقال كوليني:

– يجب أن ننتصر أولًا.. ثم الاستشارة تأتي بعد النصر.

– هذا رأيك، يا أبي، إذن لتذهب يوم الاثنين إلى الفلندر، وأنا إلى إمبواز.

– هل ستغادر باريس، يا صاحب الجلالة؟

– نعم إني أشعر بالتعب، أنا لم أود لأن أن كون ملكًا بل شاعرًا. ولقد قلت للشاعر روفسار أن يلاقيني هناك، وسننصرف نحن الاثنان بعيدًا عن الضوضاء والناس والأشرار، وقريبًا من خرير المياه وتحت ظلال الأشجار ننسى العالم إلى حين، يجب أن أنظم الآن مقطوعة كلفني بها روفسار، وليس لدي وقت كاف لأعطيك كل الأوراق الضرورية لأطلاعك على القضية الكبرى التي تفصل بيني وبين فيليب الثاني. هنالك مخطط وضعه وزرائي وسأعطيك كل شيء غدًا صباحًا.

– في أية ساعة، يا صاحب الجلالة؟

– في الساعة العاشرة.. فإذا كنت منهمكًا في نظم الأشعار فما عليك إلا أن تدخل وتأخذ الأوراق، ستجدها على الطاولة ضمن ظرف أحمر.

وافترقا بعد أن طبع الملك قبلة على شعر الأميرال الأبيض، وهطلت من عين هذا الأخير دمعة، ودخل الملك إلى غرفته المفضلة، حيث كان يتعلم المبارزة والشعر، وحيث ترى مجموعة من الأسلحة المستعملة في حالتي الدفاع والهجوم.. وعندما تطلع من النافذة وقع بصره على امرأة تصلي في الغرفة المجاورة فناداها إلى غرفته، وإذ دخلت قال لها:

– هل جاء الرجل الذي أرسلت في طلبه؟

– منذ نصف ساعة، يا مولاي.

– دعيه يدخل.

وما إن امتثل الرجل أمام الملك حتى قال له مولاه:

– أنت الذي يدعونك فرنسوا دي لوفييه مورفيل؟

– نعم، يا سيدي.

وأكمل الملك: أنت تعلم جيدًا أني أحب كل رعاياي على السواء، وتعلم أيضًا أني لا أميز بين الكاثوليك والبروتستانت.

فلم يحر مورفيل جوابًا بل شرع يرتجف كالورقة في مهب الريح فأكمل الملك:

– كنت على الاستعداد لقتل الأميرال الذي خرج الآن من هنا، ولكنك عندما اخطأت الهدف، تطوعت في جيش أخينا الدوق "انجو".

– أجل.

– ومن أواك وأطعمك؟ أليس السيد دي مواي؟ وكانت لك مع ابنه علاقة متينة؟

انحنى مورفيل على ركبتيه أمام الملك الذي أكمل:

– ألم تنفق مع السيد دي جيز أن يعطيك عشرة آلاف ليرة لتقتل الأميرال؟

فعفر القاتل جبينه في الأرض، والملك ما زال يتابع الحديث:

– أما السيد دي مواي والدك العزيز فكنت ترافقه في رحلة إلى "شافرو" فوقع السوط من يده فترجل ليأخذه من الأرض وكنت أنت وحدك معه، وما إن انحنى حتى أفرغت مسدسك في خاصرته، وعندما تأكدت من موته هربت على ظهر الجواد الذي أعطاك إياه، هذه هي القصة بحزافيرها، كما أعتقد.

فظل مورنيل صامتًا كأبي الهول، وأكمل شارل التاسع كلامه يقول:

– أتعرف أيها القاتل، بأن لي رغبة في أن أشنقك.

فصاح مورفيل.

– عفوك يا صاحب الجلالة.

– جاء ابن القتيل إليَّ أمس يطلب الاقتصاص من القاتل، فحرت كيف أجيبه لأن طلبه عادل.

فضم مورفيل يديه إلى صدره، وقال يائسًا:

– إن حياتي بين يديك.

– وأية قيمة لحياة قاتل؟

هم مورفيل بالنهوض جاثيًا على ركبتة واحدة منكفئًا على الأرض بيد واحدة وعيناه ما زلتا عالقتين بشارل ليتأكد بأنه لا يمزح، وأكمل الملك:

– أحب كثيرًا "الفتى مواي"، وأحب كذلك ابن عمي دي "كيز"، وإذا طلب مني الأول الإبقاء على حياة رجل بينما الآخر سألني القضاء على حياة ذلك الرجل، لوقعت في حيرة ما بعدها حيرة، ومع ذلك، وبدافع الحنكة سألبي طلب ابن عمي.

وفي أثناء ذلك، كان "مورفيل" ينتصب رويدًا رويدًا كمخلوق عاد إلى الحياة من جديد.

وتابع الملك حديثه:

– إن ما يهمك أنت في موقفك هذا هو أن تكسب عطف ابن عمي دي كيز.. وبهذه المناسبة، هل تعرف ماذا قال لي ابن عمي، "كل يوم صباحًا عند الساعة العاشرة يمر في شارع سان جرمان عائدًا من اللوفر، يمر عدوي اللدود، أراه من النافذة المشبكة في الطابق الأرضي، حيث يقيم مربي القديم، "بيربيل" أراه كل يوم، وأتمنى أن يطمره الشيطان في أحشاء الأرض، وأكمل شارل كلامه موجهًا الحديث إلى مورفيل:

– لو كنت أنت الشيطان، فهذا يسر ابن عمي دي كيز، كما أعتقد.

عادت البسمة الجهنمية إلى شفتي مورفيل اللتين ما زالتا معفرتين رعبًا وتلفظتا مع ذلك، بهذه الكلمات:

– لكن يا مولاي، ليس لي القدرة على شق بطن الأرض.

– ومع ذلك، فقد شققتها، ودفنت فيها "دي مواي" الأب.. ولقد قلت لي إنك قتلته بالمسدس.. ألا زلت تملك هذا المسدس؟ فقال اللص:

– عفوًا يا مولاي، إني أجيد استعمال البندقية أكثر من المسدس.

– بندقية أم مسدس.. لا فرق في ذلك.

– ولكن لابد من الحصول على بندقية دقيقة الصنع، فلربما اضطررت أن أطلق النار من بعيد.

– لدي عشرة بنادق أصيب بها الليرة الذهبية على مسافة مائة وخمسين خطوة. هل تريد أن تجرب واحدة منها؟

– بكل سرور.

واختار "مورفيل" إحدى البنادق تلك التي كانت موضوعة في زاوية خاصة، ولكن الملك قال له:

– لا.. هذه أحتفظ بها لنفسي، فلسوف أذهب يومًا إلى الصيد فأحتاج إليها.. أما البنادق الأخرى فهي تحت تصرفك.

وبعد أن علق مورفيل إحدى البنادق في كتفه قال للملك:

– والآن، من هو هذا العدو؟

فأجابه الملك وهو يستفز القاتل بنظرات الاحتقار:

– هل أعرف أنا؟

فتمتم "مورفيل":

– سأسأل "دي كيز"، إذن.

فهز الملك كتفيه، وقال:

– لا تسأله شيئًا إذ إنه لا يجيب.. ومن يجيب على مثل تلك الأسئلة؟ يجب على الذين يطلبون الخلاص من المشنقة أن يعرفوا ذلك من تلقاء أنفسهم.

– وأخيرًا.. كيف يمكنني أن أتعرف إليه؟

– قلت لك إنه يمر كل يوم أمام نافذة "بيربيل".

– ولكن كثيرين هم الذين يمرون من هناك.. أليس له ميزة خاصة، يا صاحب الجلالة؟

– غدًا تراه حاملًا حقيبة صغيرة حمراء.

– كفى، يا صاحب الجلالة.

– أما زلت تملك هذا الحصان الخفيف الجري الذي وهبك إياه "دي مواي"؟

– عندي حصان، يا صاحب الجلالة، يسابق الرياح.

– لست بقلق عليك.. ولكن يجب أن تعرف أن الحصن له باب من الخلف.

– شكرًا يا صاحب الجلالة، صل الآن لأجلي.

– إلى جهنم، أيها القاتل، ما أنقذك من المشنقة إلا الشيطان.

– إلى اللقاء، يا صاحب الجلالة!

– إلى اللقاء.. ولكن، اسمع، يا مورفيل، إذا تحدثوا عنك غدًا قبل العاشرة أو لم يتحدثوا بعد ذلك فهنالك ضجة في سجن "اللوفر".

ثم شرع شارل التاسع يصفر لحنه المحبب إليه بكل دقة وبمنتهى السرور.

الفصل الرابع

كان هنري ملك النافار ينتظر "لامول" بفارغ الصبر، هذا الفتى عاد إلى باريس مساء يوم ٢٤ أغسطس ١٥٧٢، ولم يكن فندق من الفنادق المنتشرة على طرفي الطريق ليعجبه، بل أطلق العنان لجواده حتى قلب العاصمة حيث استلفت نظره إعلان مزركش هو "النجمة الجميلة". فقال في نفسه إنه فندق رائع، وإذا بفارس قادم من ناحية الشارع الآخر استهواه الإعلان أيضًا، فتوقف ثم طرح السؤال على السيد "لامول" يقول:

– ألست هنا قرب قصر اللوفر؟

– أجل.. هذا الفندق قائم قرب اللوفر.

– ألا ترى أنه فندق رائع؟

– ولكن أخشى أن يكون المظهر الخارجي غير الداخلي، لأن باريس مليئة بالدعايات الفارغة.

– لا معنى للدعاية الفارغة عندي، فعندما يقدم لي المضيف دجاجة محمرة دسمة كإعلانه يجعلني أنسى كل شيء.. هيا بنا!

– أراك قد أقنعتني.

وأكمل السيد لامول ضاحكًا:

– دلني على الطريق، إذن.

– بكل طيبة خاطر.. فأنا لست إلا خادمك الكونت أنيبال دي كوكوناس.

– وأنا لست إلا الكونت جوزف دي لامول خادمك أيضًا.

– إذن، لندخل والذراع بالذراع.

ودخلا الفندق معًا، ولكن المضيف لم يكترث لهما بل أجابهما بأن لا غرف شاغرة عنده، وبعد أخذ ورد طويلين وافق على استقبالهما، فجلسا جانبًا يتحدثان في حين أوعز المضيف إلى الخادم بتحضير غرفتين لهما.

قال كوكوناس "للامول":

– إنك قاصد قصر اللوفر، أليس كذلك؟

– وأنت أيضًا، يا سيد "كوكوناس"، كما أظن.

– إذن، نذهب نستقصي المكان معًا.

– ولكننا تأخرنا الآن.

– سواء تأخرنا أم لا، الكلمة عندي أمر.. الوصول إلى باريس بأسرع ما يمكن، ومقابلة الدوق دي كيز.

واقترب المضيف منهما لدى سماعه كلمة الدوق "دي كيز" مرهفًا أذنيه. فقال كوكوناس متأثرًا بالخشونة التي استقبلهما بها المضيف:

– أرى أن هذا المضيف الخشن يستمع إلينا.

فقاطعه المضيف يقول:

– أجل. إني استمع إليكما لكي أخدمكما، إذ ما إن سمعت كلمة الدوق دي كيز الكبير حتى أسرعت. بم يمكنني أن أساعدكما؟

–كلمة حولتك من رجل خشن إلى إنسان مسالم!

– ما اسمك، يا معلم؟

– المعلم "لاهوريير".

– حسنًا ، يا معلم "لاهوريير" هل ترى أن يدي أقل وطأة من يد الدوق دي كيز الذي جعلك مهذبًا إلى هذا الحد؟

– كلا، يا سيدي الكونت، ولكنه أقل طولًا منك، على كل حال، إن هنري هذا الكبير هو معبودنا نحن الباريسيين.

فقال "لامول":

– أي هنري؟

– أرى أن هنري هو واحد.

– عفوًا، يا صديقي، هنالك هنري آخر أهيب بك أن لا تذكره بسوء، عدا أن هنري دي كوندي الذي له استحاقة هو الآخر.

فأجاب المضيف:

– لا معرفة لي بهما.

فأجاب لامول:

– أنا أعرفهما، وبما أني مدعو لمقابلة الملك هنري دي نافار أمنعك أن تذكرهما بسوء.

قال المضيف وهو يرمق "دي كوكوناس" بنظرة خاصة:

– سيتحدث سيدي إلى الدوق دي كيز؟

كم أنت سعيد، إذن! وإنما أنت قادم.

فقاطعه كوكوناس:

– لماذا؟

– لحضور الاحتفالات.

– أجل.. إن باريس تغمرها الأفراح.

– باعتدال، يا سيدي، وهنالك فرح كبير ينتظرنا.

– أفراح زواج جلالة ملك النافار، لذلك تعج باريس بالزوار..

وما أكمل "لامول" كلمته هذه حتى أجابه لاهوريير:

– أتباع ملك النافار.

ثم توقف المضيف قليلًا وتابع كلامه:

– أرى أنكما من أتباعه.

فصاح كوكوناس:

– بل أنا من أتباع الدوق دي كيز حتى الموت.

فقال "لامول" للمضيف:

– إذا كنت تجهل جلالة ملك النافار، لا أراك تجهل الأميرال.. ولقد سمعت أنه ذو خطوة خاصة في البلاط، وبما أني مضطر لمقابلته، فهل لك أن تدلني على مسكنه؟

– كان يسكن في شارع باتيزي.

– كان يسكن ! ماذا تعني بقولك هذا؟ هل غادر مسكنه؟

– نعم. ربما غادر هذه القافلة.

فصاح الفارسان معًا:

– غادر الأميرال هذا العالم؟

فتابع المضيف يقول موجهًا الكلام إلى كوكوناس:

– أنت من أتباع الكونت دي كيز وتجهل ذلك؟

– وكيف ذلك؟

– بينما كان الأميرال مارًا أول أمس بساحة سان – جرمان أمام منزل بيير بيل أصيب بطلقة بندقية.

فصاح لامول:

– مات؟!

– كلا. كسرت الطلقة ذراعه وأصبعين من أصابعه، ولكن الرصاص كان سامًا، كما يعتقدون. فقال لامول:

– إني ذاهب إلى قصر اللوفر، على الفور. هل أجد الملك هنري؟

– يمكن، لأنه يسكن هناك.

فقال كوكوناس:

– وأنا ذاهب إلى قصر اللوفر أيضًا، هل أجد الكونت دي كيز؟

– ممكن، لأني رأيته مارًا من هنا منذ لحظة يصحبه مائتا رجل.

فقال "لامول":

– إذن، هيا بنا، يا سيد كوكوناس.

– سأتبعك.

وصاح المضيف بهما:

– وعشاؤكما؟

فأجاب "لامول":

– سأتناول طعامي عند ملك النافار.

وقال كوكوناس.

– وأنا أتناول طعامي عند الكونت دي كيز.

وقال المضيف في نفسه بعد أن رافق الفارسين المتجهين إلى قصر اللوفر بنظراته حتى اختفيا:

– أما أنا سأحضر طعامي وبندقيتي في الوقت ذاته، إذ لا أحد يعلم ما سوف يحدث.

الفصل الخامس

ما إن ظهر قصر اللوفر أمام الفارسين حتى سأل كوكوناس رفيقه لامول:

– ما بك تتطلع هنا وهناك متعجبًا؟

فأجاب لامول:

– لست أدري. قلبي يخفق، ولا أعلم لماذا يبدو لي القصر مظلمًا؟

– أما أنا فلست أدري ماذا دهاني، ولكني أحس بغيظة باطنية.

ثم ألقى كوكوناس نظرة خاطفة على هندامه، وأكمل:

– أرى أن ثيابي مهملة قليلة ولكن، لا بأس، ألسنا فرسانًا؟ وبما أني نفذت الأوامر المعطاة لي ووصلت إلى القصر في الموعد المحدد فسيستقبلونني على الرحب والسعة.

وأكمل الفارسان سيرهما مدفوعًا كل منهما بالعاطفة التي عبر عنها أحدهما للآخر. كان قصر اللوفر محفورًا بالحراس، فارتبك الفارسان أول الأمر، ولكن كوكوناس الذي اتضح له أن اسم الدوق دي كيز يفعل فعل السحر في نفوس الباريسيين فسأل أحد الحراس طالبًا الدخول باسم الدوق دي كيز، فاضطرب الحارس في البدء، ثم ما لبث أن أجابه فيما إذا كان يعرف "كلمة المرور".

فاعتذر كوكوناس لجهله "كلمة المرور".

عندئذ، قال له الحارس:

– ابتعد خارجًا.

وفي أثناء ذلك، كان رجل يتحدث إلى ضابط قيادة الحرس، واتفق أن سمع "كوكوناس" يطلب الدخول إلى القصر فترك الضابط واقترب منه وسأله:

– ماذا تريد من الدوق دي كيز؟

فأجاب كوكوناس مبتسمًا:

– أود التحدث إليه.

– مستحيل. إن الدوق عند الملك الآن.

– وصلني أمر بالحضور إلى باريس، ومعي رسالة.

– وصلك أمر.. ومعك رسالة؟

– نعم. وأنا قادم من بعيد.

– من بعيد؟

– إني قادم من "بيامون".

– حسنًا ، وما اسمك؟

– الكونت اينبال دي كوكوناس.

– حسنًا ، هات الرسالة يا سيد اينبال.

وقال لامول في نفسه: "يا له من رجل لطيف، ألا يمكنني أن أفعل مثله

لأدخل على ملك النافار؟"، بينما كرر الرجل قوله موجهًا الكلام إلى كوكوناس ومادًا يده نحوه:

– هات الرسالة.

– وكيف ذلك وأنا لا أعرفك؟

فقال الحارس عندئذ:

– إنه السيد "بيسم" أعطه الرسالة ولا تخش شيئًا.

فأجاب كوكوناس:

– عفوًا، يا سيد "بيسم" ولكن لا يجب تسليم الأمانة لغير صاحبها.

– لا مجال للاعتذار.

وتقدم لامول بدوره من الرجل فقال:

– بما أنك لطيف إلى هذا الحد، فهل لك أن تؤدي لي ذات الخدمة التي أديتها لصديقي؟

– ما اسمك؟

– الكونت لراك دي لامول.

– لا أعرفك!

– لا غرابة في ذلك؛ إذ إني رجل غريب وقادم من بعيد مثل كوكوناس بالتمام.

– من أين أنت قادم؟

– من بروفنسا.

– ومعك رسالة؟

– نعم. معي رسالة.

– للسيد دي كيز؟

– كلا... لجلالة ملك النافار.

– أنا لا أخص ملك النافار، ومن ثم فإني لا أستطيع أن أتسلم رسالتك.

ودخل "بيسم" من باب القصر مشيرًا لكوكوناس ليتبعه، وبقي دي لامول وحده، وما هي إلا لحظة حتى تعالت جلبة في الداخل، وإذا بمائة فارس خارجين من القصر فقال الحارس لرفيقه:

– إنهم جماعة ملك النافار تعلو وجوههم علامات الفرح، فلربما وعدهم ملك فرنسا بإعدام قاتل الأميرال، وهكذا ينتقم للأب والابن معًا.

فتقدم لامول من الحارس وقال له:

– عفوًا أيها الحارس الشجاع، هل هذا هو السيد دي مواي؟

– نعم. هو نفسه.

شكره دي لامول واتجه نحو قائد الفرسان ليسأله:

– إني علمت أنك السيد دي مواي.

فأجابه الضابط بلطف:

– نعم. يا سيدي.

– لي خدمة عندك.

– هل لي الشرف أن أعرف أولًا إلى من أنا أتحدث؟

– الكونت لاراك دي لامول.

وتبادل الاثنان التحية، ثم قال دي مواي:

– إني مستمع إليك، يا سيدي.

– إني قادم من أكس أحمل رسالة من السيد دي أورباك حاكم بروفانس، لمولاي ملك النافار وفيها أخبار مهمة ومستعجلة فكيف يمكنني الوصول إلى قصر اللوفر؟

– ليس أسهل من الدخول إلى قصر اللوفر، فإذا شئت فإني أقودك إلى غرفته وتدبر نفسك بنفسك بعد ذلك، تعال، اتبعني.

نزل دي مواي عن ظهر جواده ورمى باللجام بين يدي خادمه، واتجه نحو باب القصر ملقيا في إذن الحارس كلمة المرور مصطحبًا معه دي "لامول" إلى داخل اللوفر، ثم فتح باب البهو الكبير وقال للامول:

– ادخل وتسلم.

ثم قفل راجعًا من حيث أتى، وكان البهو فارغًا، وإذا هنالك باب آخر خرج لامول منه، فوجد نفسه في رواق كبير، قرع ونادى فلم يجبه أحد، إذ كان الصمت مخيمًا على القصر.

فقال في نفسه:

– سأمشي إلى الأمام فلابد لي من أن ألقى أحدًا أخيرًا، وراح يسير في الرواق الذي شرع يبدو أمامه مظلمًا شيئًا فشيئًا.

وإذا بأحد الأبواب ينفتح فجأة، ويخرج منه خادمان يحملان مشعلين يشعان أمام امرأة لها قيمة هيفاء ومشية جبارة وجمال ما بعده جمال. فجمد دي لامول في مكانه وتوقفت المرأة عن المسير، وقالت بصوت عذب:

– ماذا تريد، أيها الرجل؟

فخفض لامول عينيه إلى الأرض وأجاب:

– عفوًا، أرجوك.. رافقني السيد مواي حتى هذا المكان وتركني وذهب، وأنا أبحث عن ملك النافار.

– جلالته ليس هنا، إنه عند صهره.. ألا يمكن للملكة أن تقوم مقامه في غيابه؟

– دون شك يا سيدي، ومن يقودني إليها؟

– أنت أمامها الآن. أنا ملكة النافار

فبدرت من "لامول" حركة استغراب ورعب، ابتسمت الملكة على إثرها، وقالت:

– تكلم، فإنهم ينتظرونني عند الملكة الأم.

– إسمحي لي، يا سيدتي، أن أبتعد خارجًا، إذ من المستحيل أن أتحدث إليك في مثل هذا الوقت، مظهرك يبهر عيني فلا يمكنني أن أفكر، بل يجب على أن أتأمل.

فتقدمت الملكة منه قليلًا، وقالت.

– أفصح عن حاجتك فسأنتظر وسينتظرونني.

– عفوًا، يا سيدتي، فإني لم أتصرف نحوك كما يتصرف الخادم الأمين مع ملكته.

فقاطعته مارغريت قائلة:

– لقد حسبتني إحدى وصيفاتي.

– كلا، يا مولاتي.

– هذا الحوار لا يجدي نفعًا.. هات الرسالة لأعطيها للملك.. أسرع.

وبطرفة عين، سحب "لامول" من صدره رسالة موضوعة في ظرف من الحرير. أخذت مارغريت الرسالة وتأملت الخط ثم قالت له.

– ألست السيد دي لامول؟

– نعم. يا مولاتي، إني سعيد جدًا بأن تذكري اسمي.

– سمعت زوجي يتحدث عنك وأخي دوق النسون كذلك، وإني أعرف أنك آت على موعد سابق.

ووضعت الرسالة في صدرها بينما لامول يتابع بنظراته كل حركة من حركاتها ثم قالت:

– والآن، إنزل إلى الطابق الأسفل، وانتظر حتى يأتيك خبر من زوجي الملك أو أخي الدوق. وسيقودك واحد من خدامي إلى هناك.

وعبرت الملكة المكان فاحتك ثوبها العريض بلامول وهو منزو قرب الحائط مفسحًا لها مجال العبور، وتصاعدت الروائح العطرية منها، فأحس بدوار فاستند إلى الحائط واختفت مارغريت من أمامه كالحلم العابر، وقاده الخادم إلى الطابق الأسفل. كان المكان خاويًا إلا من فارس يروح ويجيء لم يتبينه "لامول" أول الأمر، ولكن، ما لبث أن صاح متعجبًا:

– من أرى؟ أليس الكونت دي كوكوناس؟

والتفت هذا الأخير متعجبًا أيضًا وأجاب:

– السيد "دي لامول" أليس كذلك؟ ومن جاء بك إلى هنا؟

– السيد دي مواي.. هل اجتمعت بالسيد دي كيز؟

– كلا حتى الآن، وأنت هل اجتمعت بملك النافار؟

– كلا. قادوني إلى هنا، وقالوا لي انتظر.

وإذا بالباب ينفتح ويدخل "بيسم" فجأة ليقول للسيد كوكوناس:

– أين تسكن، يا سيد كوكوناس؟

– شارع النجمة الجميلة.

– حسنًا ، عد إلى فندقك، هذه الليلة.

قال هذا وشرع يتلفت حواليه، فقاطعه كوكوناس قائلًا:

– وهذه الليلة، ماذا؟

– تعود إلى هنا مسرعًا. كلمة المرور هي "كيز".

– وفي أية ساعة أعود؟

– انتظر إشارة.

– حسنًا ، سأكون هنا لدى سماعي الإشارة.

ثم ألقى التحية على السيد "بيسم" واتجه نحو فندق "النجمة الجميلة"، وإذا بالباب ينفتح ويدخل أحد الخدم ليقول للامول:

– أنت الكونت دي لامول؟

– نعم أنا هو.

– أين تسكن؟

– في فندق "النجمة الجميلة".

– يقول جلالته بأنه لا يمكنه استقبالك في هذا الوقت ربما طلبوك، هذه الليلة. على كل حال، إذا لم يصلك أي خبر حتى الصباح، عد إلى هنا غدًا.

– وإذا لم يسمح لي الحارس بالدخول؟

– حسنًا ، كلمة المرور هي "نافار"، قل هذه الكلمة فتنفتح الأبواب كلها أمامك. انتظر قليلًا سأقودك بنفسي إلى باب القصر.

الفصل السادس

كانت مارغريت دي نافار تسير في الدهليز السري المؤدي إلى غرفة الملكة الأم كاترين دي ماديسيس، فوجدتها جالسة وحدها تقرأ كتابًا، وهي ما زالت ترتدي السواد حدادًا على زوجها الملك هنري الثاني؟ إنها في الثانية والخمسين من عمرها، وما زالت تحتفظ بجمالها ونضارتها، وغرفتها. وفجأة فتح رجل الباب، وقال بوجه شاحب:

– كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ.

فرفعت كاترين رأسها لتربي الدوق دي كيز أمامها فتجيبه قائلة:

– كيف ذلك؟ وماذا تعني بقولك هذا؟

– أقول إن الملك ما زال يعطف على جماعة النافار حتى طفح الكيل.

– وماذا حدث؟

– قال لي جلالته.. يا حضرة الدوق، الشعب يشك في أنك القاتل الخفي لوالدي الثاني، وهو الأميرال. دافع عن نفسك كما تشاء. أما أنا فلا أعرف كيف أدافع عن نفسي إذا أهانوني. – ألم تجبه بشيء.

– أجل.

ولكنه التفت إليَّ وقال:

– يا حضرة الدوق، إن كلابي جائعة. وليست من أبناء آدم لأجعلها تنتظر، لذلك جئت لأبلغك الأمر.

– والنتيجة؟

– التجربة مرة أخرى.

– ومن يجرب؟

– أنا. هل الملك هنا؟

– كلا. إنه مع السيد دي نافار. فانتظرني هنا. أو بالأحرى اتبعني من بعيد.

وانتفضت كاترين واقفة، وسارت باتجاه غرفة الملك، وقد جهدت على أن يمسي وجهها أصفر، وتقطر دمعة من عينها، واقتربت، دون أية حركة من الملك شارل التاسع الذي كان يقدم قطعًا من "الجاتوه" إلى كلابه، وقالت له بصوت مرتجف:

– يا بني.

فارتجف الملك لدى سماعه صوتها المترجرج وقال:

– ما بك يا سيدتي؟

– أود الانفراد في قصر من قصورك ولا يهمني أيهما، إنما من الضروري أن يكون بعيدًا عن باريس.

– ولماذا يا سيدتي؟

– لأني لم أعد أستطيع أن أرى مثل هذه المشاهد المؤذية من قبل جماعة النافار، حتى إنهم يهددونك في قصر اللوفر ذاته.

– ألم يمت اثنان منهم قتلًا، والاثنان لهما شأنهما، الأميرال والسيد دي مواي؟ إنهم يطلبون إنصافهم لا أكثر ولا أقل، أيكون العدل مفقودًا في المملكة؟

– إنهم يتمتعون بنعمة العدل، ومع ذلك سيتمردون يومًا أولًا على السيد دي كيز ثم عليَّ، وأخيرًا عليك. إنها ليست مسألة قتل الأميرال أو سواه، إنما الأمر يتعدى إلى السيطرة التامة.

– عدت إلى مبالغاتك القديمة.

– ما رأيك إذن، يا بني؟

– الانتظار، يا أمي، فكل الحكمة في الانتظار، الرجل العظيم هو الذي يعرف كيف ينتظر.

– انتظر أنت.. أما أنا فلن أنتظر.

قالت ذلك، وانحنت احترامًا مستعدة للذهاب إلى غرفتها، فاستوقفها شارل التاسع وقال:

– ما العمل إذن، يا أماه؟ أود أن أكون عاقلًا ومحبوبًا من الجميع.

فاقتربت كاترين ونادت السيد نافان الذي كان يداعل حيوانًا أليفًا، وقالت له:

– تعال أيها الكونت، وقل للملك ماذا عليه أن يعمل؟

فسأل الكونت الملك:

- هل تسمحون لي بالكلام؟

- تكلم.. تكلم..

- عندما تكونون في الصيد ويهاجمكم الخنزير البري..

- أواجهه بقوة وأغمد خنجري في حنجرته.

فأضافت كاترين:

- لكي تتفادى أذاه.

فقال الملك:

- ولكي أتسلى أيضًا.. ولكني لن أتسلى بقتل رعاياي فجماعة النافار هم رعاياي كجماعة دي كيز تمامًا.

فقالت كاترين:

- إن جماعة النافار كالخنزير البري، سوف يهدمون عرشك.

- أتظنين ذلك يا سيدتي؟

- ألم ترى السيد دي مواي وجماعته اليوم؟

- نعم. رأيتهم.. أي شيء غير عادل طلبوه؟ طالبني بموت قاتل أبيه وقاتل الأميرال.. ألم نقتص للسيد مونتجمري بسبب وفاة والدي وزوجك.

- دعك من هذا الحديث أنت تعيش تحت عناية الله الذي يعطيك القوة والحكمة والثقة.. أما أنا فإني امرأة مسكينة.

وألقت التحية وخرجت وهي تشير إلى الدوق دي كيز سرًّا، ليدخل على الملك الذي تابع أمه حتى اختفت من أمامه، ثم شرع يداعب كلابه ويصفر لحنًا من ألحان الصيد. وفجأة، قال:

– يبدو أن والدتي تتمتع بروح ملكية، تريدني أن أقتل عشرات الرجال لأنهم جاؤا يطلبون عدلًا.

فتمتم الدوق "دي كيز" الذي كان قد حل محل الملكة الأم ليقوم بتجربة ثالثة مع الملك:

– عشرات الرجال!

فأجابه الملك وكأنه يتجاهل وجوده:

– أنت هنا؟ نعم.. عشرات الرجال..

– إذا جاءني أحد وقال لي: أخلصك من جميع أعداءك بين ليلة وضحاها.. فأقضى عليهم جميعًا حتى يفنوا عن بكرة أبيهم... فهل أقبل؟ وهل هذا معقول؟

فقال الدوق دي كيز:

– وإذا قدر لأحد بأن ينقذك من جميع أعدائك فماذا يكون موقف جلالتكم؟

– بشفاعة أي قديس يتم ذلك؟

– نحن الآن في الـ ٢٤ من شهر أغسطس، إذن يكون ذلك بشفاعة القديس بارتليمي.

– قديس طاهر متواضع سلبوه الحياة سلبًا ولم يتفوه بكلمة.

– ذلك أفضل يقدر ما تألم بقدر ذلك جاءت نقمته على أعدائه أشد وأقوى.

– أنت، يا ابن عمي، بسيفك الذهبي، تقتل عشرة رجال الآن بين ليلة وضحاها من جماعة النافار! يا للطرافة!

وقهقه الملك ضاحكًا ضحكة عريضة جاء صداها مزعجًا فأردف الدوق دي كيز يقول:

– كلمة واحدة منك ويتم كل شيء.. نحن عشرون مقابل واحد.

– إنك قوي إلى هذا الحد، فلماذا جئت تزعجني؟ ما شأنك وشأني، إفعل ما تريد.

قال الملك هذا واتجه نحو كلابه وانفتح الباب وظهرت كاترين مرة أخرى فقالت:

– كل شيء يسير على ما يرام.. فلتلح عليه أيها الدوق.

فأضاف دي كيز يقول:

– وإذا فعلت ذلك فهل أكون عند حسن ظنك؟

– لماذا تضايقني إلى هذا الحد. أو لست أنا الملك؟

– كلا حتى الآن. أما إذا شئت فغدًا تصبح ملكًا.

فأكمل شارل التاسع يقول:

– إذن، ستقتلون ملك النافار والأمير كونديه وفي قصر اللوفر أيضًا.. كلا. إليكم عني!

وصاح الدوق دي كيز:

– إنهما ذاهبان هذا المساء مع أخيك الدوق النسون للقيام بأعمال شاذة كالعادة.

ودخل الملك إلى غرفته تاركًا الدوق دي كيز والسيد نافان في حيرة من أمرهما.

وفي مكان آخر على مسرح القصر، كانت كاترين مجتمعة مع سيدات القصر اللواتي يحضرن إلى غرفتها كل ليلة ليودعنها قبل نومها متمنيات لها ليلة هانئة.. إذا بها تصرفهن جميعهن إلا السيدة مارغريت، التي تتطلع من النافذة إلى السماء كأنما هي في عالم آخر.. وشاءت الملكة الأم أن تقول لها شيئًا فكان لسانها ينعقد في فمها فتكف عن الكلام. وفي أثناء ذلك، انفتح الباب. ودخل هنري دي نافار فقفزت الأرنبة التي كانت على السرير وركضت نحوه.. فقالت كاترين:

– أنت هنا، الليلة.. هل تتعشين في القصر؟

– كلا. سنذهب أنا والنسون وكونديه نتجول في المدينة.

فابتسمت كاترين وقالت:

– إن جميع الرجال يحبون مثل هذا التجوال في المدينة ليلًا... أليس كذلك، يا ابنتي؟

فأجابت مارغريت:

– صحيح.. إن الحرية لشيء جميل جدًا.

– هل يعني ذلك أني أضغط على حريتك؟

قال هذا موجهًا الكلام إلى امرأته التي أجابته على الفور:

– لست أنا التي أتذمر.. إنما هذه هي حال النساء على العموم.

فقالت كاترين:

– لعلك ذاهب للاجتماع بالأميرال.

– نعم.. ربما.

– اذهب.. حسنًا تفعل.. وعد إليَّ غدًا حاملًا لي أخباره

– سأذهب بما أنك توافقين على ذلك.

– اذهب.. اذهب..

فخرج هنري تنفيذًا لأمر الملكة الأم، وإذا بالسيدة دي سوف تطل برأسها لتقول لكاترين:

– إن رينيه "صاحب العطور" على الباب جاء إلى هنا حسب أمرك.

نظرت كاترين إلى هنري دي نافار فاحمر وجهه ثم تحول الاحمرار إلى اصفرار فجأة. إذ أتوا على لفظ اسم قاتل أمه ثم اتجه نحو النافذة، واستند على قضبانها الحديدية. وإذا بشخصين يدخلان، أحدهما رينيه الذي كان يحمل علبة فتحها فعبقت الغرفة بالرائحة الذكية.

وكانت السيدة دي لورين الأخت البكر لمارغريت القادمة الأخرى التي دخلت وكأنها تختلس الخطوات كي لا تلفت إليها انظار كاترين، التي كانت تتفحص مع السيدة دي سوف علام تحتوي العلبة التي جاء بها رينيه، وجلست لورين قرب مارغريت التي كانت واقفة إلى جانب ملك النافار ويده على جبهته كأنما يفيق إلى نفسه من غيبوبة بعيدة، وقالت كاترين لمارغريت:

– يمكنك أن تذهبي إلى غرفتك يا ابنتي. وأنت يا بني، يمكنك أن تذهب للتجوال في المدينة.

نهضت مارغريت واستدار هنري قليلًا، وأمسكت دي "لورين" بيد مارغريت وقالت بصوت هامس:

– باسم الدوق دي كيز الذي ينقذك كما أنقذته.. أقول لك لا تذهبي إلى غرفتك.

فقالت كاترين:

– ماذا تقولين، يا سيدة كلود دي لورين؟

– لا شيء، يا أمي.

– تحدثت بصوت منخفض مع مارغريت.

– تمنيت لها ليلة سعيدة، ونقلت إليها ما قالته لي الدوقة دي نيفير.

– وأين هي هذه الدوقة الحسناء؟

– مع صهرها، الدوق دي كيز.

وألقت عليها كاترين نظرة مريبة ثم قالت:

– تعالي، يا كلود..

أطاعت كلود فأمسكت كاترين بيدها وتمتمت في أذنها وهي تضغط بشدة حتى كادت ابنتها أن تصرخ من الألم:

– ماذا قلت لها؟

وإذا بهنري ولم يفته شيء مما يجري أمامه، إذا به يقول لمارغريت:

– هل تسمح لي، سيدتي، بتقبيل يدها؟

فمدت له يدها مضطربة.فتمتم هنري وهو يقبل يدها:

– ماذا قالت لك؟

– عدم الخروج.. باسم السماء.. لا تخرج أنت أيضًا، وأدرك هنري أن هنالك مؤامرة. ليس هذا كل شيء، بل إليك هذه الرسالة.

– حملها السيد "لامول".. أليس كذلك؟

– نعم.

أخذ هنري الرسالة ودسها في جيبه ثم اتجه إلى "فلوترين" مارًا من أمام زوجته الشاردة ووضع يده على كتفه وقال:

– كيف تسير الأعمال التجارية، يا سيد رينيه؟

فأجاب صاحب السم بابتسامته الكريهة.

– حسنة.. حسنة، يا سيدي.

– ولماذا لا تكون كذلك ما دام أن الرؤوس المتوجة في فرنسا والخارج بين يديك؟

– ما عدا رأس الملك دي نافار.

– أجل. أمي التي كانت تبتاع حواءجها من عندك أصضتك بي قبل مماتها. فقال تعال غدًا أو بعد غد واجلب معك أفضل ما عندك من روائح عطرية.

وإذ طال المزاح، وطالت المجاملة بين الجميع من الشفاء وليس من القلوب، قالت الملكة الأم موجهة الكلام إلى مارغريت:

– ألم أطلب منك الانسحاب إلى غرفتك.. فإذا كان الطلب لا يكفي فسوف أضطر إلى استعمال صيغة الأمر.

– عفوًا، يا سيدتي، أتمنى لك ليلة سعيدة.

– آمل أن تستجاب أمنيتك.. ليلة سعيدة.

وانسحبت مارغريت وهي تترنح وتحاول عبثًا أن يلتقي نظرها بنظر زوجها، وأضافت الملكة الأم:

– وأنت، يا هنري، ألا تبارح المكان؟

فقال ملك النافار:

– آه! صحيح.. نسيت أن لدي موعدًا مع الدوق النسون، والأمير كونديه.. ولكن هذه الروائح العطرية تسكرني، إلى اللقاء، يا سيدتي.

– إلى اللقاء، ستوافيني غدًا باخبار الأميرال، أليس كذلك؟

– لن أتأخر عن ذلك.

وخرج هنري بوجه هادئ وثغر باسم جاهلًا أن الموت بانتظاره. وتطلعت كاترين نحو السيدة دي سوف وقالت لها:

– اذهبي وادعي السيدين دي كيز ونافان، إنهما في كنيسة القصر لكي يصطحبا دوقة "لورين" التي تبدو عليها أمارات الاضطراب.

الفصل السابع

عندما أنهى "لامول" وكوكوناس طعامهما البسيط، مد كوكوناس رجليه واتكأ على الطاولة، وقال وهو يجرع ما تبقى في كأسه من نبيذ:

– هل تريد أن تنام، يا سيد "لامول"؟

– لي رغبة في ذلك، إذ ربما جاؤا وأيقظوني ليلًا.

– وأنا أيضًا.. ولكني أفضل بدلًا أن ننام وبالنا مشغول بانتظار من يأتي لإيقاظنا، لو نطلب ورقًا ونلعب، وهكذا نكون دائمًا تحت الطلب.

– إني أقبل باقتراحك، ولكني لا أملك مالًا يكفي للعب بالكاد، أملك مائة قرش ذهبًا.

فصاح كوكوناس متعجبًا:

– مائة قرش ذهبًا! أنا لا أملك ستة قروش ذهبية.

– دعك من المزاح.. لقد رأيتك بأم عيني تسحب من جيبك محفظة مليئة بالدراهم.

– هذا المال، يا صاح، دين عليَّ أحمله لصاحبه، أما ميزانيتي الحقيقية فلا تتعدي ستة قروش ذهبية، والمال الذي رأيته هو للسيد "مار كندون".

– كيف تلعب إذن؟

– خطر لي خاطر.

– وما هو؟

– جئنا نحن الاثنين إلى باريس وهدفنا واحد؟

– نعم.

– لكل منا زعيمه القديم.

– أجل.

– إذن، نلعب أولًا على الدراهم التي معنا، ثم على المكافأة التي سينالها كل من زعيمه.

فقال "لامول" مبتسمًا:

– لست ذاك اللاعب الماهر لأجازف بمكافأتي التي ربما كانت سندًا عظيمًا لي في مستقبلي، فلست مستعدًا أن أضع حياتي تحت رحمة ورق اللعب أو "الزهر".

– حسنًا.. ليلعب كل منا على عشيقته.

– لا عشيقة لي.

– وأنا كذلك. ولكن سأسعى وراء امرأة، وما نحن بمنحوتين من صخر لنستغني عن النساء.

– لك ما تشاء. أما أنا فأرى أن أفضل طريقة هي أن نلعب على ما معك من دراهم، فإذا خسرتها وشئت أن تكمل اللعب، فأنت رجل شريف.. ووعد الحر دين..

– أحسنت، كلمة الرجل الشريف تساوي ذهبًا ولاسيما إذا كان لهذا الرجل دين في البلاط.

وشرعا يلعبان فخسر كوكوناس، وطلب من لاهوربير أن يأتيه بالخمر فأشار إلى خادمه قائلًا:

– هات كأسين من الخمر.

ثم همس في أذني كوكوناس:

– انقذ حياتك.. اصرف رفيقك.

فشعر كوكوناس بارتعاش غريب يسري في كيانه لدى سماعه كلمة لاهوربير ومشاهدة وجهه الشاحب، فقال "للامول":

– أرجوك أن تعذرني، يا سيد لامول، لقد خسرت ما أملكه وأنا في حيرة من أمري.

– لا بأس.. يسرني أن أستلقي على سريري بعض الوقت.. يا سيد لاهوربير،

– نعم أيها الكونت.

– إذا جاؤا يسألون عني من قبل ملك النافار، أرجوك أن توقظني.

وقال كوكوناس:

– وأنا أيضًا سأكون جاهزًا..

فألقى "لامول" التحية على كوكوناس ثم قال للسيد موربير:

– أرجوك أن تقودني إلى الغرفة المعدة لي.

واختفى "لامول" وهو يصعد الدرج اللولبي يتبعه لاهورييز، وإذا بالرجل الأخير الذي كان في الفندق عندما وصلا إذا به يقترب من كوكوناس ويمسك بيده قائلًا:

– كدت تتلفظ بكلمة يتوقف عليها مصير المملكة ولكنك سكنت في الوقت المناسب وإلا لكنت مضطرا أن أطلق عليك النار.. وبما أننا أصبحنا وحدنا الآن فاسمع ما سوف أقول لك.

فسأله كوكوناس:

– ومن تكون أنت لتكلمني بمثل هذا الكلام؟

– هل سمعت بالسيد مورفيل؟

– قاتل الأميرال؟

– والقائد دي مواي أيضًا.

– نعم بدون شك.

– دي مورفيل هو أنا.

وإذا بالباب ينغلق وحركة المزلاج تنطلق، وإذا بالمعلم "لاهوريير" يقترب من الاثنين مقدمًا مقعدًا لمورفيل وآخر "لكوكوناس" ويحتفظ بمقعد لنفسه وقال:

– لا أحد يستطيع أن يسمعنا مطلقًا.. يمكنك أن تتحدث كما تشاء.

ودقت الساعة في شارع سان جرمان معلنة الحادية عشرة، فشرع مورفيل بعد الدقات الواحدة بعد الأخرى، وعندما تصاعد صدى الدقة الأخيرة في القضاء قال لكوكوناس:

– هل أنت من أنصار الدوق دي كيز حتى الموت؟

فأجاب كوكوناس:

– بكل تأكيد.

– وهل أنت مخلص للملك؟

– وكيف لا ؟

– إذن، ستتبعنا..

– إلى أين؟

– إينما كان..

– إن لي مهمة ذات أهمية كبرى في قصر اللوفر ليلًا

– وإلى هناك نحن ذاهبون.

– والسيد دي كيز ينتظرني.

– نحن أيضًا.

– ولكن "كلمة المرور" خاصة بي.

– ونحن كذلك لنا "كلمة مرور" خاصة.

– عدا ذلك، لي صلاحية أخرى.

فابتسم "مورفيل" وأخرج من جيب سترته قبضة من الصلبان المعلقة بقماش أبيض، وأعطى واحدة إلى "هورييز" وأخرى إلى كوكوناس وواحدة له، فعلق لاهورييز صليبه على قبعته، وكذلك "مورفيل".. وصاح كوكوناس متعجبًا:

– إذن، الدخول مباح للجميع كما يبدو؟

– نعم لأنصار الملك المخلصين.

– هنالك عيد كبير في قصر اللوفر.. وستقام وليمة كبرى وأنصار النافار مدعوون ولا شك.. وسيدفعون ثمن الوليمة إذا طالت ثرثرتهم في أنحاء القصر.

– نعم. في القصر عيد.. وإذا كنت من أنصارنا سنبدأ بدعوة بطلهم الأول، كما يقولون

فقال كوكوناس:

– الأميرال؟

– نعم ! هو نفسه الذي أخطأته عندما أطلقت عليه من بندقية الملك نفسه..

فأضاف لاهورييز:

– لذلك تراني أجهز سيفي وأشهر خنجري.

فاصفر وجه "كوكوناس" قليلًا وسرت قشعريرة خفيفة في جسمه إذ بدأ يفهم.. وقال:

– ماذا؟ هذا العيد.. هذه الوليمة.. سوف..

فأجابه مورفيل مقاطعًا:

– طال بك الوقت حذرت، وأراك منزعجًا.

– وتتعهد على نفسك بالذهاب إلى عند الأميرال..

فابتسم "مورفيل" وجذب كوكوناس نحو النافذة وقال:

– انظر.. أترى هذه الساحة الصغيرة، في آخر الشارع وراء الكنيسة؟ ألا تلاحظ أيضًا الفرق التي تتجمع بهدوء في الظلام؟

– نعم.

– هؤلاء الرجال يحملون صليبًا على قبعاتهم كالسيد لاهورييز وأنت وأنا. ثم ماذا؟

– إنها فرقة من السويسريين، أقرباء الملك يقودهم السيد "توكينو"..

– أجل.. أجل.

– أترى هؤلاء الفرسان على الجسر؟ هل تعرف رئيسهم؟

– كيف تريدني أن أعرفه، ولم يمض على وجودي في باريس سوى ليلة واحدة؟

– الدوق دي كيز الذي ستجتمع به هذه الليلة، في اللوفر.

– الدوق دي كيز؟!

– هو نفسه.. ومعه السيد مارسيل رئيس التجار السابق، وتشورون،

الرئيس الحالي للتجار، انظر.. هل ترى قائد المنطقة انتبه إليه، ماذا سيفعل؟

– إنه يدق الأبواب.. ولماذا يفعل ذلك؟

– صليب أبيض.. صليب كالذي نحمله على قبعاتنا..

– كل باب يدقه، يخرج من داخله برجوازيون مسلحون سيدق على بابنا أيضًا، ونخرج بدورنا.

– كل هذا الجمع لقتل أميرال عجوز! يا للخجل!

– رجال النافار قساة يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم.

– سيقتلونهم جميعًا، إذن!

– كلهم.

– بأمر من الملك؟

– بأمر من الملك ومن الدوق دي كيز.

– ومتى ذلك؟

– عندما تسمع دقات جرس سان جرمان.

– لذلك قال لي رجل "الدوق دي كيز" بأن أسرع حالما اسمع دقات جرس سان جرمان

– لقد رأيت، إذن السيد "يبسم"؟

– أجل. وتحدثت إليه

– أين؟

– في اللوفر. هو أدخلني، وأعطاني "كلمة المرور".

فقاطعه مورفيل قائلًا:

– انظر.

– إنه هو نفسه.

– هل تورد التحدث إليه؟

– لا مانع من ذلك.

فصاح مورفيل.

– "كيز ولورين".

فتوقف "بيسم" لدى سماعه "كلمة السر" واقترب قائلًا:

– هذا أنت، يا سيد "مورفيل".

– أجل. ومن تطلب؟

أبحث عن فندق "النجمة الجميلة" لكي أبلغ رجلًا اسمه السيد "كوكوناس".

فأجابه كوكوناس:

– ها أنذا.

– هل أنت مستعد؟

– نعم. وماذا يجب أن أفعل؟

– كما يقول السيد مورفيل، مناصر مخلص.

فقال مورفيل لكوكوناس:

– هل سمعته جيدًا؟

– نعم. وأنت يا سيد "بيسم"، إلى أين ذاهب؟

فأجاب "بيسم" باسمًا:

– أنا.. أجل.. أنت.

– سأقول كلمة صغيرة للأميرال.

فقال مورفيل:

– قل له كلمتين، فإذا نجا هذه المرة من الأولى، فلن ينجو من الثانية.

– كن مطمئنًا، يا سيد مورفيل، كن مطمئنًا، واهتم بهذا الرجل بقدر المستطاع.

– أجل. إن جماعة "الكوكوناس" أصليون. وداعًا!

– اذهب وأنت؟

– ابدأوا بالصيد أنتم، وسنكون وراءكم.

ابتعد "بيسم".. وأقفل مورفيل النافذة. وإذا بلاهوبير يقول فجأة:

– اسمعا!

فأجاب كوكوناس ومورفيل:

- ماذا ؟

وإذا بأول دقة جرس تتعالى من كنيسة سان جرمان. فقال مورفيل:

- الإشارة! لقد قدموا الساعة.. دق جرس قبل منتصف الليل. لا بأس. وتتابعت الدقات تتبعها الطلقات النارية، وما هي إلا لحظة حتى أضاءت المشاعل في الشوارع.

فقال مورفيل:

- هيا بنا ..

فأجاب هوبير:

- لحظة.. لحظة.. قبل أن نذهب، لابد لي من أن أؤمن على مسكني، كما يقال في أثناء الحرب لا أريد أن يذبحوا امرأتي وأولادي وأنا في الخارج. في المنزل، عدو.

فقال كوكوناس حائرًا:

- السيد لامول.. أليس كذلك؟

- نعم. لقد رمى بنفسه في فم الذئب.

- ماذا؟ هل تقتل ضيفك؟

- من أجله شحذت السكين آه ! آه !

- لم أقتل إنسانًا في حياتي، وما ذبحت إلا إرادتي وفراخي ولا أعرف

كيف أذبح رجلًا؟ حسنًا، سأئتمن بإجراء تجربة على هذا الرجل، فإذا أخطأت، فليس من ينتقدني.

فاعترض كوكوناس قائلًا:

– إنها لقساوة! إن "لامول" رفيقي. أكلت معه. ولعبت معه.

فقال مورفيل:

– إن "لامول" كافر محكوم عليه بالموت، وإذا لم نقتله نحن فسيقتله غيرنا.

فأضاف لاهوبير:

– وربح منك خمسين قرشًا ذهبًا.

– ولكنه ربحها بشرف.

– بشرف أم بغير شرف.. يجب أن تدفعها.. فإذا قتلته، تساويتما.

فختم مورفيل المشاحنة قائلًا:

– طلقة بندقية.. ضربة عصا.. ضربة مطرقة.

– افعل كما تشاء، ولكن، يجب أن تنتهي منه فورًا حالًا لنصل حالًا إلى المكان المعين، كما وعدنا، لمساعدة الدوق دي كيز على الأميرال.

– حسنًا ، سأعود حالًا..

وانطلق "لاهوبير" إلى غرفة "لامول" بينما كان "كوكوناس" يتمتم:

– سيجعله يتألم كثيرًا، وسيسرقه.. لألحق به حتى أقضي عليه بدلًا من أن يتألم.. وامنع "لاهوبير" من سرقته.

وسعى كوكوناس وراء "لاهوربير" الذي ما إن وصل إلى الباب والأول ما زال يتبعه حتى انطلقت عدة رصاصات في الشارع، وإذا بحركة تتصاعد من غرفة "لامول"، تأكد لاهوربير عند سماعها أن الغنيمة قد أفلتت من يده فقال:

– يا للشيطان! لقد استيقظ!

فأجابه "كوكوناس" وكان قد أمسى قربه:

– يبدو كذلك.

– وسيدافع عن نفسه ؟

– إنه لجدير بذلك، قل، معلم هوربير لو فتك بك، لوقعت مهزلة كبرى.

ولما كان "لاهوبير" مسلحًا ببندقية محكمة الصنع، وواثقًا من نفسه، دفع الباب برجله، وإذا "بلامول" يظهر بدون قبعة، ولكنه بكامل ثيابه، واقفًا وراء سريره وسيفه بين أسنانه، وشاعرًا مسدسيه.

فقال كوكوناس:

– هيا يا سيد لاهوربير هيا!

فأجاب "لامول" وشرارات من نار تنطلق من عينه:

– يريدون ذبحي، كما يبدو، وأنت ستدفع ذلك، أيها المسكين؟

ولم يجب "لاهوربير" بشيء، بل خفض بندقيته وصوبها إلى صدر "لامول"، وما إن أطلق النار حتى انحنى "لامول" على الأرض فمرت الرصاصة من فوق رأسه، وأجابه "لامول" بالمثل، وجاءت النتيجة ذاتها، إذ فعل "لاهوربير" كما فعل "لامول" ولكن الرصاصة جاءت تستقر في كتف "كوكوناس" الذي صاح غاضبًا في وجه "لامول":

– انتظر.. انتظر.. سأفتح ثغرات في جسدك بقدر ما أخذت مني من قروش.. جئت لأخلصك من العذاب وأحميك من السرقة فيكون جزائي منك رصاصة في كتفي..

وكان "لامول" قد أدرك حرج موقفه فقفز إلى غرفة أخرى، وأغلق على نفسه الباب، وعلى أثر الضجيج، شرع مورفيل بتسلق السلم قافزًا الدرجات حتى إذا وصل إلى رفيقيه، وجد لاهوربير يخلع الباب بضربة من بندقيته، في حين كان "كوكوناس" قد دخل الغرفة، ولكنه لم يجد أحدًا في داخلها، فقال له لاهوربير:

– لقد قفز من النافذة.. وبما أننا في الطابق الرابع، فقد مات ولا شك.

– كلا. لقد تسلق سطح الجيران وهرب بأمان.

قال كوكوناس قوله هذا وهمَّ أن يقفز إلى السطح، فخاف عليه رفيقه الانزلاق لخطورة المكان، فاندفعا نحوه ودفعاه إلى داخل الغرفة وهما يقولان معًا:

– هل أنت مجنون؟ سوف تقتل نفسك.

– أنا جبلي ومعتاد على مثل هذه الأمكنة الخطيرة، وإذا شتمني أحد مرة، أصعد معه إلى السماء أو أنزل معه حتى الجحيم. اتركاني وشأني.

فقال مورفيل:

– إما أنه قد مات أو ذهب بعيدًا.. تعال معنا، فإذا أفلت منك هذا، فستجد الوفا بدلًا عنه

فزمجر كوكوناس يقول:

– إنكما على حق.. سأنتقم.

– ونزل الثلاثة الدرج وهم يقولون على التوالي:

– إلى عند الأميرال!

– إلى عند الأميرال!

– إلى عند الأميرال!

وهم في الطريق صاح كوكوناس:

– من هناك؟

فقال مورفيل:

– إنه أحد الهاربين.

فصاح كوكوناس.

– أطلق بندقيتك، يا مورفيل.

- كلا. دعني أحتفظ بالرصاص لغنيمة أكثر ثمنًا.

- وأنت يا "لاهوربير".

فهم هذا الأخير بتصويب بندقيته وهو يصيح:

- قف.. قف..

فصاح كوكوناس:

- ليتني أحمل بندقية! هرب.. وهو يقول له قف!

واندفع وراء الرجل حتى اقترب منه، ولكي لا يغدره من الوراء، صاح:

- أدر وجهك، أدر.

وإذا بطلقة تطن في أذن "كوكوناس" فيلتفت ليرى "لاهوربير" وراءه، والرجل الهارب ملقى على الأرض، وقال لاهوربير:

- لقد وفقت هذه المرة.

- أجل. لم تصبني

وإذا بلاهوربير يصرخ:

- خذ حذرك يا "كوكوناس"!

فتراجع "كوكوناس" خطوة إلى الوراء بأسرع من البرق، إذ كان الجريح يكاد أن يغرز خنجره في صدر "كوكوناس" انتقامًا، لولا تحذير "لاهوربير" له، وقال "كوكوناس" بغضب:

- أيها الثعبان!

وارتمى فوقه، وغرز سيفه ثلاث مرات في صدره، ثم قال وضحيته في حشرجة الموت:

- والآن، إلى عند الأميرال.

فأجابه مورفيل:

- يبدو أنك قاس جدًّا.

- لست أدري إذا كانت رائحة البارود هي التي تحمسني أم منظر الدم يهجني.. لقد اصطدت ديبة وذئابًا كثيرة.. ولكني لم أصطد رجالًا.. ويبدو لي أن صيد الرجال أكثر تسلية.

وأكمل الثلاثة طريقهم.

الفصل الثامن

وصل الفرسان الثلاثة إلى الفندق حيث يسكن الأميرال، فرأوا السويسريين يحيطون بالفندق يؤيدهم الجنود والبرجوازيون المسلحون.. وتعالت الهتافات تستقبلهم من بعيد، إذ تبين لهم الصلبان المعلقة على قبعاتهم.. واستطاع "مورفيل" أن يدخل إلى الفندق، وتبعه "لاهوربير وكوكوناس"، وكان واقفًا في وسط البهو رجل عيناه عالقتان بشرفة تعلو ما يقارب الخمسة عشر قدمًا، يضرب الأرض بقدمه من وقت إلى آخر ويسأل القريبين منه:

– ربما أنذره أحد.. ربما هرب.. ما رأيك؟

– مستحيل، يا سيدي.

– ولماذا؟ ألم تقل لي بأنه قبل قدومنا بقليل، إن رجلًا بدون قبعة يحمل سيفه بيده وهو يركض كأنه ملاحق، جاء يدق الباب وفتحوا له؟

– أجل. يا سيدي، وفي الحال جاء السيد بيسم وأحاط الرجال بالأبواب وبالفندق، والرجل الذي دخل لم يعد يستطيع الخروج.

وإذا بكوكوناس يقول إلى هوربير:

– هذا السيد دي كيز أم أنا مخدوع؟

– نعم. هو نفسه، هنري الكبير بانتظار خروج الأميرال ليفعل به كما فعل الأميرال بوالده.. لكل في حياته دوره.. فالآن جاء دورنا.

وأضاف السيد دي كيز موجهًا الكلام إلى بيسم:

– ألم ينته الأمر بعد؟

وفي أثناء ذلك، تعالت الصرخات في القصر، ثم دوى الرصاص، وتصاعد صدى اصطدام السلاح وفجأة، ساد على المكان صمت عميق، وهمَّ الدوق بأن يرمي بنفسه إلى الداخل، ولكن اقترب منه السيد دوغاست وأمسك به قائلًا:

– من الأفضل التريث والانتظار ضنًّا بكرامتك ومركزك، فأجابه:

– إنك على حق يا "دوجاست".. شكرًا سأنتظر.. ولكني بالحقيقة أكاد أموت قلقًا وانتظارًا بفارغ صبر. وا مصيبتاه!. إذا أفلت مني!

وفجأة، كان صدى الخطوات يقترب، ونافذة الطابق الأولى التي طالما علق الدوق عينيه فيها تفتح بقوة، ورجل أصفر الوجه مغموس بالدم ظهر على الشرفة، فصاح الدوق:

– هذا أنت أخيرًا، يا بيسم!

– نعم وسترى..

فقاطعه الدوق:

– والآخرون..

– إنهم يقضون على الآخرين.

– وأنت، ماذا فعلت؟

– سترى.. ارجع إلى الوراء قليلًا.

فخطأ الدوق خطوة إلى الوراء. ورفع بيسم جثة رجل عجوز ورمى بها بين قدمي سيده، وإذا بعشرين صوتًا يتردد معًا:

– الأميرال! الأميرال!

– ثم صمتت هذه الأصوات على الفور، ليعود الجميع فيرددوا مرة أخرى.

– الأميرال! الأميرال!

وإذا بالدوق دي كيز يقول بلهجة المنتصر:

– وأخيرًا أيها الأميرال جاسبار! لقد قتلت والدي وهائنذا أنتقم الآن.

وتجاسر أن يضع رجله على صدر البطل عدوه، وانفتحت عينا الميت، وتصاعد صوته وكأنه آت من أعماق القبور:

– ستدوس على صدرك قدم قاتل، يومًا، يا هنري دي.. أنا لم أقتل والدك.. لتكن ملعونًا!

قال الأميرال قوله هذا ولفظ أنفاسه الأخيرة.. فالتفت بيسم إلى سيده وقال:

– أأنت مسرور الآن؟

– نعم.. لقد انتقمت لي.

واقترب كوكوناس من بيسم، وقال له بلهجة التقدير، وبيسم ما زال يمسح الدم عن سيفه:

– مرحبًا، يا سيد بيسم!

وأردف لاهوربير:

– أنت قضيت عليه إذن.. وكيف ذلك؟

– بكل بساطة.. عندما تصاعدت الأصوات في القصر، فتح باب غرفته ليرى ماذا يحدث.. فكنت أنا على الباب فتلقيته بضربة سيف مزقت جسده.

وفي أثناء ذلك إذا برجلين هاربين من مطارديهما وهما يطلقان أصوات الذعر على التوالي، وما لبث أحدهما أن وقع على الأرض قتيلًا، أما الآخر فرأى نافذة مفتوحة، فألقى بنفسه منها دون أن يحسب للعلو وللأعداء الذين ينتظرونه تحتها أي حساب، وصاح الجميع وكأنهم شعروا بأن غنيمتهم ستفلت منهم:

– اقتلوه! اقتلوه!

أخذ الرجل سيفه عن الأرض الذي كان قد سقط من يده وهو يقفز، وأكمل ركضه بين قاتليه ضاربًا بكتفه ثلاثة أو أربعة، وضرب بسيفه أحدهم، ووسط النيران ولعنات الجنود الذين ثار ثأرهم خوفًا من أن يفلت منهم، مر من بينهم كالبرق، حتى وصل أمام كوكوناس الذي كان ينتظره على الباب وخنجره بيده، قال كوكوناس:

– أصبتني!

ولفح ذراع خصمه بشفرة خنجره فأجاب الهارب.

– جبان!

ولفح هذا بدوره خصمه على وجهه بشفرة سيفه ولولا ضيق المجال لكانت الضربة أكثر قسوة.

قال كوكوناس إذ تبين وجه خصمه.

– يا للشيطان! إنه دي لامول!

فردد لاهوربير ومورفيل معًا.

– دي لامول!

وقال بعض الجنود بصوت واحد.

– هو الذي أنذر الأميرال.

وتعالت الأصوات في كل مكان:

– اقتلوه! اقتلوه!

كوكوناس ولاهوربير وعشرة جنود انطلقوا وراء لامول الذي كان يسرع ودمه يسيل فيلطخ جسمه.. وضاقت به سترته فنزعها عنه، وأمسى سيفه ثقيلًا في يده فرمى به أرضًا.. وما زال يعدو ويعدو حتى اقترب من اللوفر فانخرط بين الجنود فيضيع بينهم، وتلقى ضربة خنجر أخرى، ومع ذلك استطاع أن يندفع إلى القصر كالسهم مجتازًا الدرج وصاعدًا إلى الطوابق، حتى تعرف على أحد الأبواب فاستند إليه، وأخذ يقرعه بيديه ورجليه وإذا بصوت نسائي يتصاعد من الداخل:

– من هناك ؟

قال كوكوناس في سره: "لو نجوت نذر عليَّ بأني سأمسي من أنصار دي كيز"، وأكمل بصوت عال:

– يا إلهي! إنهم قادمون إني أسمعهم لقد وصلوا.. إني أراهم..

ثم وجه نداءه إلى سائلته:

– أنا.. أنا...

– ومن أنت؟

وتذكر "لامول" كلمة سر، فصاح:

– نافار.. نافار..

وانفتح الباب في الحال، ودخل لامول دون استئذان مجتازًا غرفتين أو ثلاثًا حتى وصل إلى غرفة مضاءة بقنديل معلق بالسقف، وفي سرير من خشب السندبان المقطع، وتحت شراشف مطرزة بالذهب، كانت امرأة نصف عارية تتكئ على ذراعها وهي تفتح عينيها ذعرًا. فاندفع "لامول" نحوها وقال:

– يا سيدتي، إنهم يقتلون ويذبحون إخواني، ويريدون قتلي أنت الملكة فأنقذيني.

وارتمى على قدميها تاركًا على البساط بقعًا من الدم، وإذا رأت الملكة هذا الرجل المصفر الوجه جاثيًا أمامها انتصبت خائفة، وأخفت وجهها بين يديها وصاحت:

– النجدة! النجدة!

فقال لامول وهو يجمع قواه ليستطيع الوقوف.

– يا سيدتي، أرجوك باسم السماء بأن لا تنادي أحد فإذا سمعوك هلكت، إن القتلة يتبعونني.. ولقد صعدوا الدرج ورائي.. ها هم! ها هم..

وأكملت ملكة النافار نداءها وهي غائبة عن رشدها:

– النجدة! النجدة!

– سأموت بسببك.. أموت فدى هذا الصوت العذب أموت بهذه اليد الجميلة.. ظننت أن هذا مستحيل.

وانفتح الباب، وإذا جماعة من الرجال والغضب قد أخذ منهم كل مأخذ، وكوكوناس في مقدمتهم، وكان أكثرهم حماسة للضربة الأخيرة التي تلقاها من "لامول" وقال:

– هذا هو.. ولقد ظفرنا به هذه المرة.

وشرع لامول يبحث حواليه عن سلاح فلم يجد، فألقى نظرة على الملكة، ولمح الشفقة مرتسمة على وجهها ففهم أنها وحدها هي التي يمكنها انقاذه فارتمى عليها وغمرها بذراعيه، وخطا كوكوناس ثلاث خطوات إلى الأمام وغرس بخنجره كتف خصمه فسقطت بضع نقاط من الدم القرمزي على ثوب مارغريت الأبيض المعطر، وتمتم لامول بصوت يكاد يكون حشرجة:

– أنقذيني

وانزلق أرضًا بدمه دافعًا الملكة معه. وفي أثناء ذلك كان كوكوناس سكران برائحة الدم فمد سيفه نحو خصمه وغرسه في قلبه، وكأنما غرسه في

قلب الملكة أيضًا. وأطلقت ابنة الملوك صيحة كبرى ارتجف لها كوكوناس، وإذا بفتى يدخل من باب سري وعمره لا يتجاوز السابع عشرة سنة يرتدي ثيابًا سوداء مصفر الوجه وشعره مشعث ليقول:

– رويدًا، يا شقيقتاه! هائنذا!

فقالت مارغريت:

– النجدة! يا فرنسوا.

اخفض لاهورريير بندقيته وهو يقول:

– الدوق النسون.

وتمتم كوكوناس وهو يرجع خطوة إلى الوراء!

– فتى فرنسا!

والقى الدوق النسون نظرة حوله فألفى مارغريت مذعورة والعرق يتصبب من جبينها، فصاح:

– يا للمساكين!

فقالت مارغريت منهوكة القوى:

– أنقذني، يا أخي، إنهم يريدون ذبحي.

وتقدم الدوق النسون دون سلاح باتجاه كوكوناس ورفقائه الذين تراجعوا مذعورين أمام الشرارات المنبعثة من عينيه، وقال لهم:

– أتذبحون فتى فرنسا؟

وإذ ما زالوا يتراجعون أمامه، وجه كلامه إلى قائد الحرس قائلًا.

– علقوا المشانق لهؤلاء.

وما إن أتم الدوق النسون عبارته هذه حتى كان كوكوناس على عتبة الباب، ولاهوريير ينزل الدرج بقفزات الأيل، والجنود يتدافعون نحو المخرج. وفي أثناء ذلك، كانت مارغريت قد ألقت على الفتى المغمى عليه غطاءها الحريري ثم ابتعدت عنه، وعندما اختفى آخر مهاجم، رجع الدوق النسون وقال لشقيقته وقد رأها مليئة بالدماء:

– هل أنت جريحة؟

– كلا. لا أظن ذلك. وإذا حدث شيء من هذا فالجرح بسيط جدًا

– وهذه الدماء من أين؟

– لست أدري، ربما أحد الجرحى وضع يده عليَّ

– وضع يده على شقيقتي! ليتك أشرت إليه بأصبعك آه ! ليتني أعلم أين أجده!

– اسكت.

– ولماذا ؟

– لو رأوك هنا في مثل هذه الساعة.

– الشقيق لا يستطيع زيارة شقيقته!

ورمقت مارغريت الدوق بنظرات حادة ومهددة قال الدوق على أثرها:

– أجل. أنت على حق.. سأعود إلى غرفتي.. ولكن لن تبقي وحدك، هذه الليلة. هل أنادي جيون؟

– كلا.. إذهب من حيث أتيت.

وأطاعها الأمير الفتى وما إن غاب عن عينيها حتى أسرعت ورفعت الغطاء عن "لامول" الذي كانت قد وضعته عليه لتخفيه عن عيني شقيقها، وإذ رأته ما زال يتنهد، شرعت ترشه بالماء ليثوب إلى نفسه. وكم كان عجبها كبيرًا عندما تبينته جيدًا، وعرفت أن لزوجها مصلحة معه! ووضعت يدها على قلبه، فإذا به يخفق، فتناولت زجاجة خاصة من على طاولة قريبة منها ووضعتها أمام أنفه، حتى إذا استنشقها لامول فتح عينيه ثم تمتم:

– آه! يا الهي! أين أنا!

فقالت مارغريت:

– أنت في أمان.. كن مطمئنًا.

فحول "لامول" نظره نحو الملكة، والتهمها بعينيه وتمتم:

– آه! كم أنت جميلة!

ثم تنهد وأغمض جفنيه من جديد.

فقالت مارغريت:

– يا إلهي! ارحمه، يا إلهي!

وفي أثناء ذلك، قرعوا على الباب بشدة، فأمسكت مارغريت بكتف "لامول" وهي تصيح:

– من القادم؟

فتصاعد صوت امرأة تقول:

– أنا، يا سيدتي، أنا الدوقة دي نيفير.

– هنريت!

ووجهت الكلام إلى "لامول":

– ليس من خطر، أيها السيد، اتبعني

فبذل "لامول" جهده، وانتصب على ركبة واحدة فقالت له الملكة:

– حاول أن تتماسك، سأفتح الباب.

فأسند "لامول" يده إلى الأرض، واستطاع أن يحافظ على توازنه وخطت مارغريت خطوة نحو الباب ثم توقفت وهي ترتجف ذعرًا ثم صاحت وقد سمعت جلبة الأسلحة.

– لست وحدك!

– كلا. إني مصحوبة باثنى عشر حارسًا كلفهم الدوق دي كيز بحراستي.

فقالت مارغريت.

– إلزمي الصمت.. ولا تتفوهي بكلمة.

وشرعت تنظر هنا وهناك علها تجد مكانا فتخفي فيه الجريح فتمتم لامول.

– سيف.. خنجر..

– تريد أن تدافع عن نفسك؟ لا جدوى من ذلك. إنهم اثنا عشر وأنت وحدك.

– كلا. ليس كي أدافع عن نفسي، وإنما لئلا أموت بين أيديهم.

– كلا.. كلا.. سأنقذك.. هلم معي إلى هذه الغرفة.

فاستجمع "لامول" قواه تسنده مارغريت التي أغلقت الباب عليه، وأخرجت المفتاح وأخفته:

– لا صراخ ولا شكوى ولا تنهد فتنقذ نفسك.

وارتدت معطف الليل واتجهت نحو باب غرفتها لتفتح لصديقتها التي ارتمت بين ذراعيها:

– لم يحدث لك شيء؟ أليس كذلك، يا سيدتي؟

– لا.. لا شيء أبدًا، بما أن الدوق دي كيز كلف اثني عشر حارسًا كي يحافظوا عليَّ.. وإني لست بحاجة إلى مثل هذا العدد، فإني أترك لك ستة وأحتفظ بستة.. فهم يساوون فرقة من جيش النافار.

لم تستطع مارغريت الرفض، فأوعزت إلى الحرس بالانتظار في الرواق، وقبلت الدوقة التي مشت مع حرسها الستة نحو فندق دي كيز الذي تسكنه في غياب زوجها.

الفصل التاسع

لم يهرب كوكوناس ولا "هوريير" الذي قفز من اللوفر إلى الشارع، وإذ رأى نفسه وحيدًا بين المارين والقنابل تدوي والجثث تتساقط من النوافذ مهشمة أو مقطعة، شعر بالخوف وهم بأن يعود إلى فندقه، حتى إذا اتخذ طريق شارع "الشجرة الجافة" مارًا بشارع "أفرون" وقع بين أيدي فرقة من السويسريين التي يقودها "مورفيل" الذي ما إن رأى لاهوريير حتى صاح به.

– هل انتهيت من عملك؟ أنت عائد إلى فندقك؟ وماذا حدث لرفقينا كوكوناس؟ ألم يحدث له أي سوء.. لا أظن ذلك لأنه لا يستحق شيئًا من هذا.

– لا. أبدًا.. وسيلحق بنا عما قريب.

– من أين أنت قادم؟

– من اللوفر حيث استقبلونا بقساوة.

– ومن فعل ذلك؟

– الدوق "النسون".

– لا بأس. الدوق "النسون" لا يهمه إلا نفسه.. ألا تأتي مع رجالي الشجعان؟

– وإلى أين ذاهبون؟

– هنالك وزير من أعدائنا له امرأة وستة أولاد لابد من التخلص منهم.

– وأنت شخصيًّا إلى أين ذاهب؟

– لي مهمة خاصة.

وإذا بصوت يتصاعد فجأة.

– وأنا؟

فقال مورفيل.

– إنه كوكوناس.

وقال "لاهوريير":

– أجل. إنه كوكوناس.

– لماذا تأخرت؟ ظننتك تتبعني.

فقال مورفيل:

– وصاحبك هل التجأ إلى القصر؟

– نعم.. وقد أطلقت عليه النار ولست أدري كيف أخطأته!

فقال كوكوناس:

– أما أنا فأغمدت سيفي في ظهره ورأيته يهوي بين ذراعي مارغريت.. يا لها من امرأة حسناء!

– إلى أين أنت ذاهب؟

– تصر على الذهاب معنا!

– لم أقتل إلا ثلاثة أو أربعة فقط.. وعندما تبرد حرارة الحماسة في، أشعر بألم في كتفي.. فقال مورفيل.

– أيها القائد، إليك بالرجال جميعًا ونفذ المهمة بالقضاء على الوزير.. أما أنا فدعني مع ثلاثة رجال فقط.

وانقسم الجمع إلى فريقين، سار القائد مع الفرقة بكاملها من جهة ومورفيل وكوكوناس ولاهورييز وثلاثة من الحرس السويسريين من جهة أخرى، وإذا بكوكوناس وقد أضناه المسير يقول لمورفيل:

– إلى أين تسير بنا؟

– الأميرال ثم تاليني ثم أعداؤنا الأمراء.. والآن، مهمتنا هي في الوصول إلى شارع "شوم"، حيث أقودكم.. صبرًا، إذن.

فقال كوكوناس:

– أليس شارع شوم قريبًا من "الهيكل"؟

– نعم. ولماذا؟

– هنالك دائن من عائلتنا يدعي "لانبرت ماركندون" كلفني والدي بإعطائه دينه ما يقارب مائة ذهبية.

– إن الوقت لمناسب لهذا الوفاء.

– وكيف ذلك؟

– في مثل هذه الظروف يسددون الديون عادة، قل، هل ماركندون من حزب النافار؟

– أجل. فهمت.. هو كذلك .

– السكوت! لقد وصلنا.

– ما اسم هذا الفندق الضخم؟

– "فندق دي كيز".

– يا له من فندق رائع! الهدوء مخيم على جوانبه كما لو كانت الحالة طبيعية!

وبعد قليل، توقف مورفيل ليقول:

– هذا هو مسكن ذاك الذي تبحث عنه وستكون أنت، يا لاهوريير، رسول سلام.. أعط بندقيتك لكوكوناس ثم اقرع الباب، وعندما تدخل اطلب مقابلة السيد "دي مواي"، ثم تطلعه على كل ما يجري، فسينزل حالًا لأنه شجاع.

فسأله لاهوريير قائلًا:

– وعندما ينزل فماذا سيحدث؟

– سأطلب منه المبارزة.

فقال كوكوناس:

– وسأفعل ذات الشيء مع لاميرت ماركندون.

وراح "لاهوريير" يقرع الباب، وفجأة انفتحت باب الشرفة وظهر رجل بقبعة الليل، وثيابه البيضاء وبدون سلاح وصاح:

– من هناك؟

– هذا أنت، يا سيد دي مواي؟

– نعم. ثم ماذا؟

– ألا تدري ماذا يحدث؟ إنهم يذبحون الأميرال وكل إخواننا.. هلم لمساعدتنا.

– لقد كان ظني في مكانه.. شعرت بأن شيئًا سيحدث الليلة! انتظرني ها أنا قادم!

وراح مورفيل ورفقاؤه يتخذون كل الاحتياطات للقضاء على دي مواي حالما يفتح الباب، ولكن باءت جهودهم بالفشل إذ ظهرت صديقته الشابة على الشرفة، وما إن رأتهم حتى صاحت مذعورة وإذا دي مواي وكان على أهبة الخروج يعود أدراجه بينما المرأة ما زالت تصيح:

– عد.. إني أرى سيوفًا تلمع!

فأغلق دي مواي الباب، وأحكم المزلاج جيدًا ثم صاح من الداخل:

– ماذا تريد أيها القادم؟ هأنذا على استعداد.

وإذا بمورفيل يتقدم ليجيب:

– لسنا هنا للقيام بمذبحة.. لم نأت لنقتلك غدرًا، كما تظن، بل من أجل المبارزة.

فصاح دي مواي:

– هذا أنت يا مورفيل، يا قاتل أبي وقاتل الملك.

وأطلق دي مواي رصاصته الأولى فاستقرت في قبعة مورفيل. وتلتها الطلقة الثانية فأردت أقرب جندي من مورفيل قتيلًا، وإذ رأى دي مواي أنه قد أمسى دون رصاص صاح، وكان الناس قد تجمعوا على النوافذ والشرفات.

– إليّ يا سيد فاركندون! هلم لمساعدتي.

وتعالى صوت رجل عجوز من النافذة الأخرى يقول:

– ماذا ؟ هل أنت السيد دي مواي الذي يريدون قتلك؟

– نعم. نعم. أنا وأنت وكل أنصارنا.

واحتدمت المعركة بين الفريقين وكان رجال النافار أكثر عددًا، وجميعهم متحصنون في منازلهم فلم يجد مورفيل مناصًا إلا الهرب، بينما "لاهورييز" وقع أرضًا. أما كوكوناس فكان يلتهب حماسة وما إن رأى ماكندون يصحبه ولده وأبناء عمه حتى صاح :

– إنك لا تعرفني.. يا سيد ماركندون؟

– إني أعرفك ، أيها المسكين؟ إنك تضمر لي السوء وأنا صديق والدك؟

– ودائنه أيضًا؟

– نعم... لأنك أنت قلت.

– ها قد جئت لتصفية الديون

فقال العجوز لمرافقيه:

امسكوا به وأوثقوه فأجاب كوكوناس:

– مهلًا! لقد نسيتم الحبال.

ثم جرد سيفه واشتبك معهم في معركة هائلة موجهًا إلى أحدهم ضربة قاضية وهو يتمتم:

– لقد تخلصنا من واحد!

وإذا بالنافذة التي التجأ كوكوناس تحتها، تنفتح فظن هذا الأخير لدى سماعه صرير النافذة أن أحد الأعداء يهاجمه من الوراء، ولكم كانت دهشته عظيمة إذ رأى باقة من الورد تستقر على قدميه، وقد رمت بها امرأة من النافذة ذاتها فحيا المرأة بسيفه، وانحنى ليأخذ باقة الورد وإذا المرأة تصيح:

– خذ حذرك، أيها الفتى الشجاع.

وانتصب كوكوناس واقفًا بخفة فائقة لم يتمكن معها ابن عم ماركندون الثاني من غرس سيفه في كتف كوكوناس، بل هذا الأخير غرس خنجره في كتف الأول.

فصاحت السيدة:

– أحسنت أيها الشجاع.. هل تريد مساعدة؟

– كلا.. لسوف ترين كيف يصرع دي كوكوناس أعداءه!

وفي أثناء ذلك أطلق ابن ماركندون النار على كوكوناس الذي ارتمى على ركبتيه، وعلى أثر ذلك صاحت السيدة بأعلى صوتها مذعورة، ولكن كوكوناس انتصب واقفًا، إذ إنه لم يركع إلا تجنبًا للرصاصة التي استقرت في الحائط تحت النافذة بمترين، وإذا بنافذة أخرى مواجهة تنفتح وتظهر منها امرأة عجوز لترمي كوكوناس بحوض من الورد. فقال كوكوناس في نفسه.

– حسنًا ! واحدة معي وأخرى عليَّ

أصبح ماركندون العجوز مع ابنه الفتى الذي لم يتجاوز السابعة عشرة سنة وحيدين أمام كوكوناس الملتهب حماسة، والذي اندفع نحو الفتى الذي بدا متحمسًا هو الآخر ليبارزه، وإذا بماركندون يهم بدفع كوكوناس عن ابنه لتتمكن الوالدته العجوز من رمي قطعة من الرخام على رأسه، ولكن كوكوناس تدارك الموقف وأمسك بخناق الفتى، وكاد يسلمه الروح لو لم يصح.

– النجدة.. النجدة!

عندئذ، كف ماركندون عن تهديده وشرع يتوسل قائلًا:

– الرحمة! الرحمة! يا سيد كوكوناس، إنه ولدي الوحيد.

وصاحت الأم بدورها.

– إنه ولدي.. أمل شيخوختي.. لا تقتله.. لا تقتله..

فأجاب كوكوناس وهو يقهقه ضاحكًا!

– وسيفه ومسدسه؟

فأضاف ماركندون!

– أعطيك صك والدك، وعندي ألف قطعة ذهبية أقدمها لك.. وجواهر العائلة هي ملكك ولكن، لا تقتله..

فكر كوكوناس قليلًا ثم سأله:

– أنت من أنصار النافار؟

– نعم.

– إذن، يجب أن تموت.

وتعالى صوت العجوز نحو السيدة الحسناء التي ما زالت تتابع المشهد من نافذتها:

– بالله، يا سيدتي، اشفعي لنا وسنذكرك في صلواتنا صباحًا ومساء.

فأجابت السيدة:

– إذن، انكروا ملك النافار وكونوا من أنصارنا.

فقال الولد.

– إني من الأوفياء لملك النافار.

فأجابه كوكوناس وقد رفع خنجره فوق رأسه.

– مت إذن.

رأى ماركندون وزوجته شفرة الخنجر تلمع فوق رأس ابنهما فصاحت الأم أولًا:

– أنكر ملك النافار، يا بني.

وصاح ماركندون بدوره.

– أنكره. أنكره، يا بني.

ثم ارتمى على قدمي كوكوناس وأكمل.

– لا تتركنا وحيدين على هذه الأرض.

فقال كوكوناس:

– أنكروا ملك النافار بصوت واحد.

فقال الفتى.

– سأنكر.. وقالت الأم والوالد.

– سننكر.

– اركعوا إذن جميعكم.

فأطاع الوالد أولًا ثم قال الفتى.

– بكل سرور.

– وركع بدوره.

وشرع كوكوناس يتلو عليهم قرار الإنكار، واتفق أن ركع الفتى قرب

سيفه، فدفعته الحمية ليمد يده خلسة ويمسك سلاحه دون أن يكف عن ترديد قرار الإنكار وراء كوكوناس الذي أحس به، ولكنه تغاضى عنه حتى إذا رآه قد قبض حقًّا بيده على سيفه انبرى نحوه ورمى السيف من يديه وصاح.

– يا لك من خائن!

ثم غرز خنجره في ركبة الفتى الذي زعق وهو ينتصب على ركبة واحدة ثم وقع على الأرض ميتًا فتمتم ماركندون:

– يا لك من جلاد! إنك تذبحنا لتتخلص من والدك.

فقال كوكوناس:

– أخطأت!

قال هذا ثم رن بكيس الدراهم أمام ماركندون وأكمل:

– هذا مالك.

وصاحت الأم من النافذة:

– خذ قطعة الرخام هذه التي ستقودك إلى حتفك.

وتبعها صوت المرأة الأخرى تقول:

– خذ حذرك، يا كوكوناس.

ولكن كانت قطعة الرخام قد استقرت على رأسه فهوى أرضًا، فأسرع ماركندون نحوه وخنجره بيده.. وإذا بباب الفندق ينفتح وتخرج منه جماعة

مدججة بالسلاح، فما كان من "ماركندون" إلا أن ولى هاربًا بينما المرأة الحسناء كانت تصيح بالجماعة:

– هناك.. هنالك فتى يرتدي سترة حمراء.. أجل. هذا هو! هذا هو!

الفصل العاشر

عالجت مارغريت كتف وصدر "لامول" بيدها مدعية أنها مثل ملكات فرنسا خبيرة بالحشائش الناجعة للجروح، وإذا بالباب يقرع بشدة فقالت:

– إنهم يقرعون على الباب السري.

فقالت الوصيفة جيون:

– من القادم، يا ترى ؟

– سأرى. ابقي أنت بالقرب منه ولا تتركيه.

أقفلت مارغريت الباب عليهما ودخلت إلى غرفتها الخاصة لفتح الباب السري، وإذا بها تتراجع مدهوشة وهي تقول:

– السيدة دي سوف!

– نعم. يا سيدتي.

فعادت مارغريت إذ إن المرأة لا تسامح المرأة الأخرى التي سلبتها رجلًا حتى وإن كانت لا تحبه:

– السيدة دي سوف!

– سامحيني، يا سيدتي، فأنا مجرمة كبيرة، بحقك.

– لا أظنك جئت تعتذرين إنما هنالك سبب أكثر أهمية.. قولي لماذا جئت إلى هنا؟

– جئت لأسألك إذا كان هنا.

– من؟ عمن تتكلمين؟ إني لا أفهمك!

– عن الملك.

– الملك.. تلحقين به حتى إلى غرفتي.. ومع ذلك إنك تعرفين بأنه لا يأتي في مثل هذا الوقت!

– ليته كان هنا !

– ولماذا ؟

– إنهم يذبحون جميع مؤيديه !

– ربما أنه أكبرهم.

– ما ظننت يومًا أن الملك يتعرض للمخاطر كأفراد الشعب.

– إنه عرضة للخطر أكثر من الجميع.

– قلت له بأن لا يخرج من القصر فهل يخرج؟

– كلا. كلا.. كان في اللوفر ثم اختفى..

– قضي الأمر.. لقد أقسمت الملكة على قتله.

– قتله! إنك تخيفينني! مستحيل!

– قلت، لك يا سيدتي، بأن الجميع يجهلون أين هو؟

– والملكة الأم، أين هي؟

– كلفتني بأن أنادي السيد دي كيز والسيد نافان ثم أمرتني بالانصراف فصعدت إلى غرفتي انتظر...

– تنتظرين زوجي، أليس كذلك؟

– لم يأت، يا سيدتي، فذهبت أبحث عنه في كل مكان، وسألت الجميع عن مقره فأجابني أحد الجنود بأنه رآه قبل بدء المذبحة بقليل ولقد مضى على المذبحة ما يقارب الساعة.

– شكرًا، على كل حال، ولو كان مجيئك إلى هنا إهانة لي.

– سامحيني، يا سيدتي، سأعود إلى منزلي واثقة من عفوك.

– سأذهب لمقابلة الملكة الأم. عودي إلى منزلك إن ملك النافار تحت حمايتي ولقد أعطيته وعدًا على ذلك، ولن أخون عهدي.

– وإذا لم تتمكني من مقابلة الملكة الأم؟

– أقصد أخي شارل ملك فرنسا.

– اذهبي.. وليحرسك الله.

وجربت مارغريت سدى أن تتصل بالملكة الأم فوجدت الحراس يحجبون الأبواب ولا يسمحون لأحد بالدخول ما لم يبح بكلمة السر الخاصة التي كانت تجهلها مارغريت.. وإذا بها تتمتم وقد رأت من خلايا الباب الذي كان ينفتح وينغلق باستمرار رأت الملكة الأم توزع أوامرها لن أتمكن من الدخول إليها ! لأذهب إذن إلى أخي، وفي أثناء ذلك مر الدوق دي كيز، وكان قد دخل على الملكة ليعلمها بموت الأميرال، وليعود بعد ذلك إلى المذبحة.

فصاحت مارغريت:

- أين ملك النافار؟

فالتفت الدوق إليها وابتسم بسمة الدهشة، ثم انحنى أمامها وخرج مع حراسه. وأسرعت نحو قائد خارج من غرفة الملكة الأم وهو يصدر أوامره لعساكره بتعبئة بنادقهم وقالت له:

- أين ملك النافار؟

- لست من حرسه، يا سيدتي.

وإذا برينيه صاحب السم ينتصب أمامها خارجًا من غرفة الملكة الأم فبادرته بقولها:

- هل تدري أين زوجي؟

- لم يعد زوجك صديقي.. يشاع بأنه أقام عليَّ دعوى التآمر مع كاترين لقتل أمه بالسم..

- لا.. لا تصدق..

- لا يهمني ملك النافار ولا مؤيدوه في هذه الأيام.

وخرج أخيرًا السيد نافان من عند الملكة الأم، ولحقت به مارغريت لتقول له:

- كلمة واحدة، يا سيد نافان، أرجوك.

فتوقف السيد نافان فأكملت الملكة مارغريت.

– أين ملك النافار؟

فأجاب بصوت عال.

– إنه يجوب الشوارع مع السيدين النسون وكونديه.

ثم أكمل هامسًا في أذن مارغريت.

– اذهبي إلى غرفة سلاح الملك.

واتجهت إلى حيث أشار عليها وعبثًا حاولت الدخول..كان الملك شارل التاسع قد طلب من السيد نافان بأن يأتيه بملك النافار عند بدء المذبحة ففعل، وجاء به أعزل فتركه في غرفة الانتظار فريسة أفكار الوحشة والذعر والخوف من موت محتم، وظل ملك النافار ينتظر ما يقارب الساعتين حتى دخل عليه أحد القادة، واصطحبه إلى غرفة سلاح الملك الذي أشار إلى القائد بالخروج، ثم التفت إلى ملك النافار، وقال:

– أنت مسرور بوجودك قربي، أليس كذلك؟

– بدون شك.

– الأفضل لك أن تكون هنا من أن تكون هناك.

– لا أفهم ما تقول، يا صاحب الجلالة.

– انظر وستفهم.

قال شارل التاسع قوله هذا وأمسك به وقاده نحو النافذة، فإذا المذبحة في أشدها والجثث تتراكم في الشارع، فقال ملك النافار وقد علا وجهه الاصفرار:

– باسم السماء، ماذا يحدث، هذه الليلة؟

– هذه الليلة، لن يبقى من أهل النافار أحد انظر.. أترى الدخان بعيدًا
– إنه منزل الأميرال يحترق، أترى هذه الجثة التي يجرها أنصاري إنها جثة صديقك "تاليني".

فقام هنري دي نافار وهو يتحسس سيفه ناسيًا أنه أعزل، مرتجفًا من الخجل، والحقد فأجابه ملك فرنسا:

– هذا يعني أني لا أريد أحدًا من أهل النافار حولي.. أسمعت، يا هنري؟ ألست الملك؟ ألست سيد فرنسا؟

– ولكن، يا صاحب الجلالة..

– صاحب الجلالة يقتل ويذبح كل من ليس من أنصاره.. أنت قريبي في الظاهر، أما في الداخل فلست كذلك، إن لك حزبك الخاص.. هل تنكر جماعتك وتكون من أنصاري؟

– تذكر، يا جلالة الملك، إنك وهبتني وجماعتي الحرية التامة.

– هؤلاء الذين يموتون أما وعدتهم مثلك؟

فسكت هنري ولم يجب، فأكمل الملك.

– هل فهمت قصدي، الآن؟

– نعم.. فهمت.

– ثم ماذا؟

إذا كان هؤلاء يموتون فما ذلك إلا لأنك عرضت عليهم النكران فأبوا كما أرفض أنا.

– أتراني مشفقًا على هؤلاء القتلى؟

– إذا عاهدت قومًا، يا صاحب الجلالة،؟ ألا تفضل الموت ولا نكث العهد؟

فاحتدم ملك فرنسا غيظًا وأمسك بندقيته وحشاها جيدًا، وضرب الأرض بقدمه ثم قال وهو يهدد

– هل تعاهدني؟

فظل هنري صامتًا.فازداد الملك حنقًا وقال بصوت عال:

– النكران إما الموت أو الباستيل.

فأجابه هنري.

– أتقتل صهرك؟

لو كان جواب هنري كلا لأرداه الملك قتيلًا، ولكي يفرغ الملك جام عضبه اتجه نحو النافذة وصوب بندقيته إلى أحد رجال النافار وأطلق النار، فأصاب من الرجل مقتلًا، فأطلق هنري زفرة قوية.. وظل الملك يطلق النار، ويطلق صيحات الفرح كلما فتك بأحد رجال النافار.. وإذا بهنري يتمتم في سره.

– قضي الأمر.. عندما لا يجد من يقتله فسيقتلني.

وإذا بصوت يتعالى في الغرفة فجأة:

– ألم ينته كل شيء بعد؟

إنها كاترين دي مادسيس دخلت غرفة الملك دون موعد سابق، فأجابها شارل مزمجرًا:

– كلا.. هذا العنيد يرفض النكران وتطلعت كاترين إلى الملك بنظرات فهم الملك معناها وأكمل دون أن يدعها تتكلم:

– تريدين أن تقولي لماذا يعيش إذن؟ إنه يعيش لأنه قريبي فابتسمت كاترين.

لاحظ هنري هذه الابتسامة فقال علمًا منه بأن كاترين هي السبب في كل شئ:

– أنت السبب، يا صاحبة الجلالة، والملك برئ من كل ما يحدث.. أنت أوقعتني في هذا المأزق وجعلت من ابنتك طعمًا لقتلنا جميعًا.. أنت فرقتني عن زوجتي كي لا تراني أموت أمامها .

وإذا بصوت آخر يرتفع فجأة:

– هذا لا يحدث.

عرف هنري صاحبة الصوت في الحال وارتعش شارل التاسع مدهوشًا وكاترين مذعورة.

فصاح هنري:

– مارغريت!

وتمتمت كاترين:

– ابنتي!

فقالت مارغريت موجهة الكلام لهنري:

– كنت تشكوني منذ قليل فأنت محق ومخطئ.. بحق لأني كنت الطعم الذي أهلككم جميعًا.. ومخطئ لأني كنت أجهل أنك سائر إلى الهلاك أنت أيضًا.. وما إن علمت بذلك حتى تذكرت عهدي وأسرعت إليك.

ومدت يدها إلى زوجها الذي أمسك بها إذا لم يكن عن حب فعن معرفة للجميل، فقال شارل التاسع:

– من الأفضل بأن تقنعيه بالنكران.

– لا تجعل أميرًا من أهل بيتك جبانًا.

فرمقت، "كاترين" الملك بنظرة ذات معنى قالت مارغريت على أثرها.

– فكر يا أخي، جيدًا.. لقد جعلته زوجًا لي فحار شارل التاسع في أمره مأخوذًا بنظرات كاترين الآمرة من جهة ونظرات مارغريت المتوسلة من جهة أخرى.. وأخيرًا، انصاع لأقوال شقيقته.

واقترب من زوجته ليهمس في أذنها.

ان مارغريت على حق وهنري صهري.

فأجابته كاترين هامسة في أذنه هي الأخرى.

– وإذا لم يكن كذلك؟

الفصل الحادي عشر

ظل ملك النافار أسيرًا في اللوفر، ومؤيدوه يحصدهم منجل الموت حصدًا، وتلا الليل نهار تمت فيه مجزرة عنيفة جدًا، وتصاعدت نيران الحرائق في كل مكان، ومما شجعهم زهرة تنبت عادة في مقابر شهدائهم فتزهر في الربيع حتى شهر يونيو إذ بها بعد أن ذبلت تعود فتزهر من جديد ليلًا.. فراحوا جماعات يزورون مقابر موتاهم بعد أن قضوا على كل مؤيد لملك النافار في قصر اللوفر، فلم يكن بينهم من الأحياء سوى هنري دي نافار، والأمير دي كونديه ولامول.

وإذ وثقت مارغريت من أن الجريح لم يعد في خطر صرفت كل اهتمامها لإنقاذ حياة زوجها، وإذا بالباب يقرع فتتجه نحو باب غرفتها وتفتحه لترى الدوق "النسون"، فكرت مارغريت بأن تطلب تدخله لدى أخيها الملك، ولكنها عدلت عن فكرتها أن تذكرت أن أخاها كان من المعارضين لهذا الزواج.

جلس أخوها قربها يسرد على مسامعها وقائع الثورة كيف قتلوا الأميرال، وكيف أصيب تاليني برصاصة لفظ نحبه على أثرها في الحال ولما انتهى من حديثه، قالت له:

– أرى أنك لم تأت إليَّ كي تسرد عليَّ وقائع الثورة!

فابتسم الدوق "النسون" وأضافت مارغريت:

– أهنالك شيء آخر تريد أن تحدثني بشأنه؟

– كلا.

– ماذا تنتظر إذن؟

– أن تقولي لي، بأن زواجك من ملك النافار تم غضبًا عنك.

– نعم. لم أكن أعرف الأمير هنري دي نافار عندما قدموه إليَّ للمرة الأولى.

– ألم تعترفي بأنك حين رأيته لم تشعري بأية عاطفة من الحب نحوه.

– نعم.. هذا صحيح.

– ألم تقولي بأن هذا الزواج سيكون سببًا في تعاستك؟

– إذا لم يكن الزواج سعادة فهو منتهى الألم.

– إفرحي، إذن

– أفرح! ولماذا؟

– بدون شك.. ستفرقين عن ملك النافار.

– أفترق عنه! يسرني أن تشرح لي طريقة الافتراق.

– ملك النافار أبي الانكار!

– كان الجميع على علم بحزبه ومؤيديه عند الزواج.

– وماذا فعل هنري منذ زواجه حتى الآن؟

– يقضي أيامه بصحبتك في الصيد أو في نزهات مختلفة.

– أجل أيامه.. ولياليه عند السيدة دي سوف!

– وكيف عرفت ذلك؟

عندئذ، بدأت مارغريت تفهم ما همهمت به كاترين في أذن شارل، ولكن ظلت تتجاهل الأمر:

– لماذا تقول لي ذلك؟ أمن أجل أن تذكرني بأن ليس من أحد هنا يحبني ويحميني؟

– أنت غير عادلة في حكمك إني أحبك وأحميك.

– يبدو أنك تود أن تحدثني بشيء من قبل الملكة الأم.

– لا.. أبدًا.. بل أود أن أقول لك إنه من الخيانة تفضيل رجل غريب عليَّ.

– أفصح.. كيف خنتك؟

– طلبت العفو عن ملك النافار بالأمس.

– وماذا عن ذلك؟

فانتصب الدوق النسون واقفًا ثم اقترب من مارغريت، وأخذ يدها ليودعها وقال:

– وداعًا يا شقيقتي، ألم تريدي أن تفهميني فأنت وحدك تتحملين إذن عاقبة الأمور.

فاصفر وجهها ولكنها ظلت جامدة في مكانها وخرج الدوق النسون، ولكنه ما إن اختفى في الرواق حتى عاد أدراجه ليقول لشقيقته:

– إسمعي، يا مارغريت، نسيت أن أقول لك شيئًا، غدًا في مثل هذه الساعة سيكون ملك النافار في عداد الأموات.

– ألن تعمل على منع هذه الميتة.. ألا تنقذ صديقك وحليفك؟

– إن حليفي لم يعد هنري دي نافار منذ أمس.

– من هو حليفك إذن؟

– إنه الدوق دي كيز.

وأجابته بعد صمت:

– ألا تحسد الدوق دي كيز كما أنت حسود على ملك النافار؟

– أجل كنت كذلك.

– وأنا مثلك لا أحب الدوق دي كيز.

ورمقها أخوها بنظرة الرجل الذي التبست عليه الأمور، فلم يعد يفهم شيئًا وخرج.. أدركت أن مذبحة "سان برتلمي" إنما أثارتها الملكة كاترين والدوق دي كيز، وبانقياد الملك لهما، وغرقت في بحر تأملاتها لترى نفسها أرملة محجوزة في دير، وقد انهار عرش زوجها نتيجة المطامع والمطامح الغاشمة، وإذا بالملكة الأم توقظها من تأملاتها بقولها لها:

– هل تذهبين معنا لزيارة عوسجة المقبرة، مقبرة الأبرياء..

همت مارغريت أن ترفض ولكن راودتها فكرة أعجبتها، فأشارت بالإيجاب لعلها تسمع شيئًا جديدًا عن أخبار زوجها. وسارت قافلة البلاط لزيارة المقبرة، وإذا بالسيدة دي سوف وصيفة الملكة كاترين وعشيقة ملك النافار تقترب منها وتطلب أن تقبل يدها بمعزل من الملكة الأم طبعًا.. وما إن مددت مارغريت لها يدها وقبلتها حتى دست بورقة صغيرة في يدها، وسرعان ما انتبهت الملكة الأم ولكنها لم تعلم عن الورقة شيئًا، وإنما لم ترق لها هذه المجاملة الغريبة.. وأما الملك شارل التاسع فكان في حديث مع الدوقة دي نيفير يقول لها:

– قيل لي إنك قتلت أحد أعدائي بحجر رميته من النافذة.

فاحمر وجه الدوقة وأجابت بصوت منخفض:

– بالعكس، إنه أحد الأنصار أصيب بجرح فحملته إلى منزلي وأويته.

– أحسنت، يا ابنة العم، هنالك طريقتان لمساعدتي إما الفتك بأعدائي أو مساعدة أنصاري.

وفي أثناء ذلك، كانت مارغريت قد فضت الرسالة سرًّا وقرأت:

– صدر إلي أمر بإعطاء ملك النافار مفتاحين، الأول مفتاح الغرفة المحجوز فيها، والآخر مفتاح غرفتي، فإذا جاء عندي فسأحتفظ به حتى السادسة صباحًا.

وإذا بالدوقة دي نيفير، وقد لاحظتها تقرأ الرسالة إذا بها تسألها.

– من أين هذه الرسالة؟

أجابتها مارغريت وهي تمزق الرسالة أربًا أربًا.

– لي أشياء كثيرة سأقولها لك، أيتها الدوقة.

وعادت أدراجها.

الفصل الثاني عشر

عادت مارغريت برفقة الدوقة دي نيفير إلى فندق دي كيز وهناك قالت:

– إليك هذا السر، وإياك أن تبوحي به لأحد.

– تكلمي ولا تخشي شيئًا.

– إني أحب..

– تحبين؟

– أجل، أحب شابًا التجأ إلى غرفتي هربًا من أنصار دي كيز.

– إنه، إذن، من حزب النافار!

– أجل.. وإنما الحب لا يعرف الأحزاب..

– نحن النساء لا نعرف كيف نميز بين الحب والإنسانية.. أظن أنك تودين أن تطلبي مني شيئًا..

– حبذا لو تجدين له مكانا عندك حتى يشفى.

– لا مانع.. فهل تعلمين أن قصتي شبيهة بقصتك.. دارت معركة تحت نافذتي بين جماعة من أنصار دي كيز وفئة من رجال النافار، وقع أحد أنصار دي كيز جريحًا نتيجة لضربة حجر ألقت به امرأة من النافذة الأخرى على رأسه، فكان مني أن أوعزت إلى رفقائه بمساعدته ونقله إلى عندي، وهكذا كان. هلمي معي لترينه من ثقب الباب.

وأسرعت الدوقة دي نيفير تتطلع من ثقب الباب وإذا بكوكوناس جالس يأكل ووجهه نحو الباب فصاحت الدوقة:

– هلمي هلمي..

واقتربت مارغريت من الدوقة التي أفسحت لها المجال لتراه، وما إن استقر نظرها على الثقب حتى تراجعت وهي تقول متعجبة:

– إنه هو.. هو نفسه..

– ومن هو؟

أجابت مارغريت وهي تستند إلى كتف الدوقة:

– هو الذي كان يلاحق ذاك الذي أويته وضربه بين ذراعي.. يا للسعادة! لأن لا ينتبه إليَّ.

– واسمه؟

– أرجوك أن لا تلفظي اسمه أمام ذاك الذي هو عندك.

– أبدًا.

– دي لامول.

– وما اسم ذاك الذي كان عندك؟

– دي كوكوناس

– إذن فشل مشروعنا..

– ولكن ربحنا التحالف فيما بيننا.

– صداقة وإخلاص إلى الأبد.

– وكلمة السر؟

– "الحب".

عادت مارغريت إلى قصر اللوفر لترى جيون في حيرة ما بعدها حيرة، إذ جاءت الملكة الأم وأعطتها مفتاح الغرفة المحجوز فيها هنري دي نافار، ولا شك بأن للملكة الأم غرضًا بأن يقضي ملك النافار ليلته عند السيدة دي سوف، فأخذت المفتاح وكتبت ما يأتي:

"بدلا من أن تذهب إلى عند السيدة دي سوف، هذا المساء، احضر إليَّ عند ملكة النافار "مارغريت".

فوضعت الورقة في ثقب المفتاح وكلفت جيون بنقلها إلى ملك النافار، ثم راحت تعتني بالجريح الذي شرع يرجوها لتسمح له بغادرة القصر وهي تأبى خوفًا على حياته.. وكم كان سرورها عظيمًا عندما أعلمها بأن والدته من أنصار الدوق دي كيز.. ولقد أقسم بأنه في حال إنقاذه مما هو فيه قد بات يعلم ولاءه الدوق المذكور. وعادت جيون تبلغ صديقتها بأن مهمتها قد انتهت بسلام.. وظلت مارغريت في أخذ ورد مع الجريح وتطيب، ومجاملة حتى قرع الباب ودخل هنري دي نافار بعد أن أخفت الجريح طبعًا..

قال هنري دي نافار:

– هنالك واحدة شريفة يسجلها التاريخ هي أن يموت ملك النافار نتيجة خيانة زوجته له.

– إنك تجهل أن ما يجري الآن ليس إلا نتيجة عمل تحضره امرأة تحبك وتحبها.. لتتكلم كلامًا معقولًا.. هنالك شائعة قوية تقول إنك قد قررت الإنكار.

– شائعة خاطئة لم أوافق بعد.

– علمت بأنك وافقت.

– إني ما زلت أشاور نفسي، عندما يكون المرء في سن العشرين وعلى وشك أن يصبح ملكًا، فهل يتردد؟

– وهنالك شيء آخر،.. الحياة!

– آخر مملكة النافار! ولكني أريد أن أعيش أيضًا!

تمتم هنري دي نافار قوله هذا وهم بالخروج، إذ كانت الساعة في اللوفر قد دقت الحادية عشرة ليلًا وتوجه نحو الباب وهو يقول لمارغريت:

– أية خدمة تريدينها مستعد لها لقاء ما أبديته نحوي من المساعدة.

– ما أتيت بك إلى هنا إلا هربًا من مكيدة مدبرة لك في غرفة السيدة دي سوف.

عندئذ سمعوا وقع أقدام في الخارج فاختلست مارغريت النظرات لترى الملكة الأم تتجه نحو غرفة السيدة دي سوف، وهذه الأخيرة وقد لاحظت الملكة كاترين تتجه نحو غرفتها هربت وحفيف ثوبها يتصاعد ليستقر في أذن مارغريت وهنري دي نافار، فقالت مارغريت:

– لقد كان ظني في محله.

– والبرهان؟

واستل هنري من تحت سترته خنجرًا يلمع كأنه الأفعى تحت وهج الشمس.

– أخف هذا الخنجر.. إنها الملكة الأم ولكنها وحدها.

ثم همست في أذنه ببضع كلمات واتجهت نحو غرفة الجريح تطمئن عليه، بينما ملك النافار ارتمى في سريره المعد له والذي لم يستعمله إلا هذه المرة، وإذا بصرير المفتاح يتصاعد فالملكة الأم تملك مفاتيح غرف اللوفر كلها، ولها الحق بالدخول ساعة تشاء فنادت مارغريت.

– من الطارق؟

وإذا بالملكة تدخل وحراس أربعة يرافقونها فتقفز مارغريت من السرير لتقبل يدها وراحت مذ الأخيرة تقنعها بضرورة الزواج والاستغناء عن هنري دي نافار الذي جعل سر الزواج المقدس مهزلة فهو يقضي لياليه عند السيدة دي سوف، عندئذ تحمست مارغريت وأجابت:

– تكلمي، يا أماه، بصوت منخفض لئلا توقظي زوجي.

– زوجك؟

ورفعت مارغريت الستار عن غرفة هنري دي نافار وإذا به نائم في سريره.. دهشت الملكة الأم وودعت ابنتها وخرجت، وعلى إثر ذلك، قفز ملك النافار من سريره وجثا أمام مارغريت يشكرها على حسن صنيعها، ثم هم بالخروج ولكنها استوقفته قائلة:

– إني أعد لك مفاجأة.. هلم معي.

ودخلت إلى المكان حيث أخذت الجريح وقدمته للملك هنري ودارت محاورة بين الاثنين حول رسالة كان قد بعث بها قبل المذبحة أحد أصدقاء هنري دي نافار يقول له فيها: "إهرب وعد إلى بلاد النافار دون تأخير".

كانت الرسالة من أنصار الدوق دي كيز، ولكن الصداقة لها مكانتها أيضًا، فأجابه لامول عارضًا ما حدث معه من مشاكل عاقته عن تسليم الرسالة.

قرأ هنري دي نافار الرسالة ثم التقت إلى لامول وقال:

– أملك من أنصار الدوق دي كيز.

– أجل. ولقد رأيت ظلها يرافقني في أثناء مغامراتي، فقررت أن أعلن الولاء، أي أن أحب ما تحبه أمي.

وتداخلت عندئذ مارغريت تقول للملك:

– لندع السيد دي مول يرتاح قليلًا..

ثم وجهت الكلام لزوجها تقول:

– وأنت ستنام في نفس الغرفة معه أيضًا، أما أنا فسأنادي جيون وأنصرف إلى غرفتي..

نام الجميع ومارغريت لم تنم وهي تتمتم كلمة السر "الحب".

الفصل الثالث عشر

دخلت كاترين إلى غرفة وصيفتها السيدة دي سوف التي ما إن سمعت صرير المفتاح حتى قالت في نفسها إنه ملك النافار، لذلك اندهشت عندما رأت الملكة الأم تدخل عليها وهي تشير إليها بأن تبقى في سريرها، ولا حاجة لأن تزعج نفسها وتبادرها قائلة:

– هل أعطيت المفتاح لملك النافار؟

– نعم. يا سيدتي.

– وهل رأيته؟

– كلا. إني أنتظره. فقد ظننته هو عندما سمعت صرير المفتاح.

– تقولين ذلك بينما أنت متأكدة بأنه لن يأتي هذا المساء.

– أنا، يا سيدتي ! أنا متأكدة من أنه لن يأتي؟ كلا.. أبدًا.

– نعم، تعرفين ذلك.

– إذا لم يأت إلى عندي فمعنى ذلك أنه مات.

– حسنًا ، ألم تكتبي له شيئًا؟

– كلا. يا سيدتي، إنك لم توعزي إلي أن أفعل ذلك.

– إن ملك النافار نائم عند ابنتي.

– ماذا!

– هل أنت غيورة وتشعرين بالغيظ؟

– إني لا أحب ملك النافار إلا في سبيل خدمتك.

– بما أن الأمر كذلك فإني أطلب أن تظلي عالقة به، غيورة من أية فتاة يتودد إليها.

وخرجت الملكة الأم بهدوء كما دخلت، أما شارلوت فنادت خادمتها وطلبت منها أن تنام على الكنبة قريبًا من سريرها، ورغم ذلك ومع أن الضوء ما زال مشتعلًا لم تستطع شارلوت دي سوف أن تنام إلا عند الصباح.

أما ملكة النافار فقد نهضت باكرًا وأيقظت زوجها والسيد دي مول، وإذ دخل عليهما بعد قليل الدوق النسون ليقول الملك النافار، وكان قد علم من أمه أنه نائم عند أخته.

– ألا تأتي لتتسلى عند الملك؟

فأجابه ملك النافار مخفيًا دهشته:

– أجل. يا أخي.

ولاحظت مارغريت أن أخاها مستاء من وجود دي لامول في غرفتها فقالت له:

– أوصيك بهذا الرجل فاجعله من حرسك إنه أمين وشجاع.

فأجابها أخوها:

– بعد نصف ساعة، يكون عندي في الغرفة.

وفعلًا، بعد نصف ساعة كان أحد رجال الكونت النسون يساعدون دي مول على صعود الدرج إلى غرفة الدوق. كذلك أعلن ملك النافار ولاءه أمام كاهن القصر، واشتدت أواصر التآلف بينه وبين زوجته، ومع ذلك كان يعود آخر الليل إلى غرفة السيدة دي سوف متخذًا حذره بقدر ما استطاع، واستمرت المذابح حتى لم يبق ولا واحد من أنصار النافار. وإذا بالملك يقرر الذهاب إلى "مونفو كون" حيث كانت جثة الأميرال معلقة دون رأس، وافقت الملكة الأم على ذلك وخرج البلاط إلى المكان المقصود، وكان من الطبيعي أن يذهب كوكوناس ودى لامول أيضًا.. وهناك ارتجل شارل التاسع الشعر:

– هنا يرقد.. الأميرال معلقًا.. برجليه لأنه قد فقد رأسه.

وإذا عاد الموكب تنحى كوكوناس ودي لامول جانبًا، ونشبت معركة هائلة بينهما مع أنهما كانا قد وقفا على كامل قصتهما، وما جرى لهما الأول عند السيدة دي نيفير والآخر عند ملكة النافار، ولم يرتدعا عن القتال وقد أصبحا كلاهما من رجال الدوق دي كيز.. وكانت مارغريت ونيفير قد أخذتا الحيطة للأمر ولحقتا بهما، وقدمت لهما المساعدة وهما في حالة خطرة، لكن كان جرح كوكوناس أكثر خطرًا، فجاء طبيب القصر امبرواز يداويهما، فشفي دي لامول أما الآخر فما زال تحت الخطر، وهو يتخيل خصمه أمامه فيهم أن ينهض من سريره لقتله، وإذا بطبيب مجهول يدخل على السيد دي لامول ويقول له:

– إن دواء كوكوناس عندي فاجعله يجرع ثلاثة أقداح منه فيشف على الفور.. وسأرسل لك الدواء عند منتصف الليل.

لم يفهم كوكوناس شيئًا مما كان قد تسرب إلى أذنيه من حديث دي لامول والرجل الغريب، لم يفهم سوى كلمة "منتصف الليل" وفعلًا، وصل الدواء إلى دي لامول عند منتصف الليل تمامًا، فقام دي لامول واتجه نحو سرير كوكوناس الذي نهض وتناول الخنجر الذي كان متروكًا على الكرسي بالقرب منه، وهم أن يطعن رفيقه به ولكن خانته قواه فاستلقى على سريره، وكان دي لامول قد قرب القدح من شفتيه وسقاه إياها.. ولما جاء في المرة الثانية ليسقيه القدح الثانية شربها كوكوناس عن طيبة خاطر شاكرًا رفيقه.. وكذلك القدح الثالثة التي ما إن جرعها حتى زالت كل أوجاعه، وجاء طبيب القصر عند الصباح ليعلن عن شفاء كوكوناس أيضًا..

ولم تأت مارغريت لزيارة عليلها وكذلك الكونتس دي نيفير الأم بصفتها شقيقة الملك والأخرى شقيقة دي كيز، كان من المستحيل أن يفعلا ذلك خوفا من ألسنة الناس، وكذلك كوكوناس ودي لامول لم يتجاسرا أن يبحثا هذا الموضوع أمام أحد.

الفصل الرابع عشر

اتفق كوكوناس ودي لامول على أن يفعلا ثلاثة أمور: أولًا: زيارة ذاك الذي حملهما إلى القصر بعد المبارزة. ثانيًا: زيارة فندق صديقهما القديم لاهوربيير الذي كان ولا شك قد مات بعد أن رآه كوكوناس هاويًا على الأرض، والدم ينزف من عينيه وأنفه وأذنيه. ثالثًا: زيارة المعلم رينيه الذي أرسل لهما بالدواء سرًّا..

وما إن نالا الإذن بالخروج من قصر اللوفر حتى اتجها نحو منزل جلاد محكمة باريس، وهو الشخص الذي طلبت منه الملكة مارغريت أن يحملهما إلى قصر اللوفر، ففعل، وما إن رآهما حتى قال:

– أهلا وسهلًا بكما.. الحمد لله على السلامة..

فأجابه كوكوناس:

– من أنت؟

– كابوش جلاد محكمة باريس.

فمزح معه كوكوناس:

– عندما يأتي دوري فلن يعلقني على حبل المشنقة غيرك أنت.

فأجابه كابوش:

– إني أعدك بذلك.

وانطلقا بعد ذلك إلى فندق لاهوربير، وكم كانت دهشتهما عظيمة عندما وجدا الفندق في حركة دائمة، فظنا أن السيدة لاهوربير قد تزوجت ثانية وسألها كوكوناس يقول:

– يا سيدتي نحن تركنا عندكم منذ مدة حصانين وحقيبتين، فهل يمكننا استعادتها؟

فقالت لهما السيدة لاهوربير:

– انتظرا قليلًا.

ونادت خادم الفندق جريجوار، وأوعزت إليه أن يأتي بمعلمه. وقفا الاثنان مشدوهين، بينما لاهوربير جمد في مكانه مذعورًا وهو يتمتم من جهة:

– حيان!

وهما يتمتمان من جهة أخرى:

– حي!

قال كوكوناس:

– ظننتك مت بعد أن رأيت الدم ينزف من عينيك وأذنيك وأنفك.

فأجابه لاهوربير:

– أجل، ولكن الطلقة لم تصب مني مقتلًا فنجوت.

وقال الجميع بصوت واحد.

– والآن، لقد انتهينا من القتال، والحمد لله.

ثم قال لامول:

– تركنا عندك حصانين وحقيبتين، فهل لك أن تعيدها إلينا؟

فأجاب لاهوربير مازحًا:

– لقد ورثتكما!

– ترثنا حيين!

– أقول لكما الحق.. لقد بعت كل شيء إذ كنت في ضائقة.

فأجابه كوكوناس:

– حسنًا، سامحك الله.. وأما الثلاثون قرشًا ذهبًا فتعطيها لخادمك جريجوار.. وكلما مررنا نحن الاثنين من هنا ننزل في فندقك دون أي مقابل، فما رأيك؟

– على الرحب والسعة.

وقال لامول:

– هات صحنين من العجة.

وجلس كوكوناس ولامول في ذات المكان حيث جلسا في ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢، عندما عرض كوكوناس على لامول أن يقامرا على أول عشيقة يتعرفان عليها في هذه الليلة، فلم يبحثا هذا الموضوع مطلقًا، وانتقلا بعد ذلك إلى بيت رينيه الذي ما إن أحس بهما حتى قال في نفسه:

– إن القادمين رجلان.. وليست الأميرة نيفير ولا الملكة مارغريت.

وما إن أعلنا عن اسميهما حتى فتح لهما الباب وقادهما إلى غرفة خاصة وهو يقول:

– هذا المكان مخصص للضيوف فقط، وحذار أن تغادراه إلى مكان آخر.

وشكر كوكوناس ولامول السيد رينيه على دوائه العجيب وإذا به يقول:

– اطلبا ما تريدان مهما كان الأمر صعبًا تنالاه.

وعرض كل من كوكوناس ولامول أمره على رينيه بشأن عشيقتيهما.. فوعدهما خيرًا.. وشرع يتمتم بعض الكلمات البحرية باللغة اللاتينية، وإذا بوقع أقدام يتعالى في الخارج فتح رينيه الباب لتدخل الملكة مارغريت عشيقة لامول.. وهنرييت دي نيفير عشيقة كوكوناس!

أوهمهما رينيه أنه جلبهما إليهما بقوة السحر، مع أنه كان على موعد معهما، ونزل رينيه على رغبة الملكة وترك الأربعة وشأنهم منعزلين في غرفة سرية لا يعلم مقرها إلا الجان!

الفصل الخامس عشر

فتحت الملكة الأم باب رينيه فهرع الأربعة إلى الخروج.. وألقت كاترين نظرة فاحصة ثم سألت رينيه:

– من كان هنا؟

– عشاق.. استأنسوا بي عندما قلت لهم بأن الحب سيجمع بينهم.

– ما لنا والحب الآن.. أود أن تشاور لي النجوم وتعلمني عن مستقبل الملكة.

وأجرى رينية عملية الشعوذة ثم أفاد الملكة قائلًا بلهجة الحذر:

– سيملك ملك النافار.

فقالت كاترين:

– إذن، لنقم بتجربة على الدجاج الأسود.

وراح رينيه يقدم السم إلى الدجاجات فتهوي صريعة في الحال الواحدة تلو الأخرى، وضحكت الملكة ثم خرجت وهي تقول:

– إذا كانت النجوم تشير إلى أن ملك النافار سيصبح ملك فرنسا، إذن نحن على استعداد!

* * *

جاء دي مواي أحد أنصار ملك النافار سرًّا إلى قصر اللوفر، وهمه الوحيد أن يجتمع بهنري دي نافار، وكان له ما أراد.. فقال له هنري:

– لابد من أن هناك دافعًا مهمًا أتى بك إلى هنا.

– هل أعلنت الإنكار؟

– أجل.. إنقاذًا لحياتي.

– ألا تدري أن جماعة النافار قد تجمعوا في مقاطعتهم وهم على استعداد لتلقي إشارة منك لإعادتك إلى عرش النافار؟

– كذب وبهتان..

– إذن سأذهب وأقول لجماعتنا بأنك تمد يدك للذين ذبحونا..

– دعك من السياسة.. هنالك رحلة صيد رائعة سنقوم بها أنا والدوق النسون والملك.. هيا أعلن الإنكار وكن معنا.

واتفق أن كان الدوق النسون يستمع سرًّا للحديث الذي جرى بين دي مواي وملك النافار فظل يتحين الفرص حتى خرج هذا الأخير ليجتمع هو بدي مواي ويقول له:

– يا سيدي دي مواي، ما رأيك لو جعلتني ملك النافار مكان هنري؟

فأجاب دي مواي مبهوتًا:

– أنت تصبح ملك النافار؟

– وأي مانع يعوقني إن الجميع يحيون حياة ملوكية سواي..

– لو كان الأمر لي وحدي لجعلتك منذ الآن ملك النافار، ولكن لابد من استشارة باقي رفاقي.

– هيا اذهب إذن، وعد إليَّ بالجواب الشافي.

هذا من جهة.. وأما من جهة ثانية، فإن كاترين اجتمعت بمورفيل الذي كان الملك قد كلفه بقتل الأميرال، وحرضته على قتل هنري دي نافار لأن رينيه قال لها بأنه سيصبح ملك فرنسا، ومن ناحية أخرى أيضًا، الملك شارل التاسع، ملك فرنسا قام برحلة صيد لاقتناص الخنازير البرية والنيران وإذ بحيوان ضخم يهجم عليه فيجتهد الملك كل قوته للقضاء عليه، ولكن دون جدوى كان ثورًا بريًّا هائلا هجم على الملك وحصان، وكاد أن يودي بحياته ولم يبادر هنري لإنقاذه، بينما دوق النسون وسواهم ظلوا جامدين في مكانهم يتظاهرون بمساعدة الملك، حتى إن الدوق النسون أوهم شارل بأنه يصوب بندقيته نحو الثور ليقتله وإذا به يصيب حصان الملك.

* * *

إجتمع هنري بالدوق النسون شقيق زوجته، واتفقا على أن يكون الأخير ملك النافار بتأييد من الأول، وإذا بالملكة الأم تدخل عليهما دون استئذان كعادتها، وهما يتصافحان بحرارة بعد أن تم الاتفاق بينهما لتقول لهما وهي تبتسم:

– أراكما معًا! حقًا، إنكما لشقيقان يحب أحدكما الآن حبًّا بالغًا!

فأجابها هنري ببرودة بينما الدوق النسون كان يعلو الاصفرار وجهه حزنًا:

– آمل ذلك.

ثم خطا بضع خطوات ليدع الملكة الأم مع ابنها التي أخرجت من جيبها درة ثمينة وقدمتها له قائلة:

– علقها بسلسلة على قبضة سيفك.

ثم أكملت بصوت منخفض.

– ستسمع جلبة عند المساء في غرفة أخيك هنري، فإياك أن تتحرك.

فضغط فرنسوا على يد أمه، وقال:

– هل تسمحين لي بأن أريه الهدية الثمينة التي قدمتها لي؟

– قدمها له باسمي واسمك لأني أوصيت على واحدة أخرى لإهدائه إياها.

فقال النسون موجهًا الكلام لهنري:

– هل سمعت يا هنري؟ إن والدتي أهدتني هذه الدرة وسمحت بإهدائك إياها.

فانحنى هنري شاكرًا، وأكملت الملكة تقول:

– إني أشعر بشيء من التعب، يا ولدي، كذلك شارل فهو ما زال يتألم من صدمة الأمس في الصيد. حقًا، يا هنري لقد كنت شجاعًا وماهرًا في إنقاذك أخاك وملكك، ستنال مكافأة لها قيمتها.

– لا شكر على الواجب، يا سيدتي.

– كل ما يصيبني عن يدك وعن يد أخي وملكي اتقبله بالرضى.

– انحنى احترامًا وخرج وهو يتمتم في نفسه:

لقد أصبحنا اثنين أنا وفرنسوا.. الملكة تفكر بمكافأتي. يا للخداع! لابد لي من الاجتماع بماركو.

الفصل السادس عشر

مكث مورفيل أغلب النهار في غرفة سلاح الملك، منتظرًا عودته من رحلة الصيد، فلما عاد أخبرته الوصيفة بأن رجلًا غريبًا دخل غرفة سلاحه في غيابه فاستشاط غيظًا، ولكنه عندما قالت إنه هو نفسه الذي ناداه الملك مرة وجثا على قدميه مستغفرًا عندئذ، تذكر كلام الملكة الأم، وفهم كل شئ.. وفكر الملك قليلًا في الأمر ثم نادى وصيفته وقال لها:

– أغلقى جميع الأبواب، فسأنام وحدي الليلة لأني منزعج من صدمة الأمس..

ونام الملك قليلًا.. وما إن دقت الساعة معلنة التاسعة حتى نهض على عجل، وارتدى ثيابه واعتمر قبعته، وخرج من باب سري، لا يعلم به أحد حتى الملكة الأم تجهله، واتجه نحو غرفة مارغريت قائلًا لنفسه بأنه سيتناول طعام العشاء عند "مارجو"، حتى إذا وصل وقرع الباب، وفتحت "جيون" فاندهشت إذ رأت الملك منتصبًا أمامها، ودخل ولم تتمكن جيون أن تتفوه بكلمة لشدة دهشتها، وكذلك جميع من كان عند مارجو، هنري، الدوقة دي نيفير، كوكوناس، دي لامول وما كان من الملك إلا أن تمتم:

– إن هنري يتلهى دون أن يفكر بالشر!

وبادرته مارجو بالقول:

– عفوًا، يا أخي لم نكن في انتظارك:

فقال الملك:

– هيا معي، يا هنري!

ثم التفت إلى مارغريت وقال لها:

– تسمحين لي به، الليلة، وغدًا أعيده إليك.

– لست بحاجة إلى إذن مني، يا صاحب الجلالة.

وأمسك الملك بيد هنري ليقوده إلى الخارج، وطبع قبلة على جبهة مارغريت وغادر الغرفة متأبطًا ذراع هنري، الذي حاول أن يعرج على غرفته أو أن يبقى في أي مكان من قصر اللوفر، ولكن الملك منعه قائلًا:

– هيا، اخرج حالًا، إن اللوفر لا يناسبك، هذه الليلة.

وفي الواقع، خرج هنري من اللوفر، وأنقذه الملك بهذه الطريقة من المكيدة التي كانت قد دبرتها الملكة الأم.

* * *

قال الضابط وهو يضع يده على قبضة الباب:

– إن هذه الغرفة تخص ملك النافار.

فأجابه مورفيل:

– ومن قال لك غير ذلك؟

فتراجع الضابط بضع خطوات إلى الوراء وقال متعجبًا:

– القبض على أحدهم في غرفة ملك النافار، وفي مثل هذه الساعة.

فقال مورفيل:

– وماذا يكون جوابك لو قلت لك بأن الأمر صادر بالقبض على ملك النافار نفسه؟

– إن الحالة لخطيرة.. ولا يصح ذلك إلا بأمر موقع من الملك نفسه.

فقال مورفيل بعد أن سحب من جيبه ورقة الأمر التي أعطته إياها كاترين وقدمها للضابط:

– عليك بالقراءة.

فأجاب الضابط:

– حسنًا! ليس لي ما أقوله.

ثم وجه مورفيل كلامه إلى رفاقه الخمسة قائلًا:

– هل أنتم مستعدون؟

فأجابوه بالتحية والاحترام.

– اسمعوا. علينا بتنفيذ هذه الخطة: اثنان يلازمان هذا الباب، واثنان غرفة النوم، واثنان يدخلان معي.

فقال الضابط:

– ممنوع منعًا باتًا أن تتركوا الأسير يستغيث أو يقاوم. وكل مخالفة لهذا الأمر تستوجب الموت.

وأدخل مورفيل المفتاح المعطى له من كاترين في القفل، ودخل مع

الأربعة، تاركًا اثنين أمام الباب الخارجي، حسب الخطة المرسومة وإذ سمع تنفس النائم من بعيد قال:

– عثرنا على ضالتنا المنشودة بسهولة تامة.

وظن "أورتون" خادم ملك النافار بأن معلمه قادم، فانتفض من سريره وانتصب أمام خمسة رجال مسلحين، وإذ أبصر وجه مورفيل وهو المعروف بقاتل الملوك، تراجع إلى الوراء وقال بصوت عال:

– من أنتم؟ وماذا تريدون؟

فأجابه مورفيل:

– باسم الملك، أين معلمك؟

– معلمي؟

– نعم. ملك النافار.

– إنه ليس هنا.

وهم أن يدفعهم خارجًا ويغلق الباب قائلًا:

– لا يمكنكم الدخول بهذا الشكل.

وأبى مورفيل إلا أن يدخل إلى غرفة ملك النافار الخاصة، ولكن "ارتون" جابهه بقوة قائلًا:

– إن الملك غائب فلن تدخلوا إلى غرفته أبدًا.

وتشبث بالباب فأشار مورفيل إلى رجاله الذين جربوا أن يدفعوا به

بعيدًا فلم يجد بدًّا من طلب النجدة، حتى إذا هم أن يفتح فاه، ألصق مورفيل يديه على شفتي "ارتون" خوفًا من أن يطلق صيحات الاستغاثة، فعض "أورتون" يدي المجرم، فاضطر هذا الأخير لرفع يديه عن شفتيه، ولكن استدركه بضربة من قبضة سيفه على رأسه فهوى على الأرض وهو يصيح:

– النجدة! النجدة! النجدة!

وانطفأ صوته، ومر المجرمون على جسده، وانتظر اثنان منهم أمام باب غرفة الملك الخاصة، بينما الآخران دخلا مع مورفيل وعلى ضوء القنديل رأوا الستائر مغلقة، فتمتم الضابط يقول:

– إنه ليس هنا.

فقاطعه مورفيل صائحًا:

– إلى الأمام!

وإذا بصوت كالصخر يتصاعد من وراء الستائر، وينتصب أمامهم بخوذته ومسدسان بيديه، وسيفه إلى ركبته، وعرفه مورفيل على الفور أنه السيد دي مواي، فتراجع خطوة إلى الوراء وفعل دي مواي مثله وصاح بصوت منكر:

– أيها اللص، تريد أن تقتلني كما قتلت والدي!

وما إن أكمل كلمته هذه حتى أطلق رصاصة من مسدسه على رأس مورفيل الذي انحنى إلى الأرض تاركًا الرصاصة تستقر في قلب أحد الجنود الواقفين وراءه، وأجابه مورفيل بالمثل، ولكن الرصاصة ارتجت على الخوذة

دون فائدة، واستل دي مواي سيفه وضرب به جمجمة الرجل الآخر، والتقى وجهًا لوجه مع مورفيل، وضيق عليه الخناق فشرع مورفيل يتراجع إلى الوراء، حتى اصطدم بالقنديل فانطفأ وخيم الظلام، واستفاد دي مواي من الفرصة فخرج من الغرفة يضرب يمينًا وشمالًا تارة بسيفه وطورًا يطلق النار من مسدسه، حتى وصل إلى باب القصر وألقى كلمة المرور في إذن الحرس، وقفز إلى خارج القصر وهو يصيح:

– إنهم يقتلون الناس على حساب الملك.

وانطلق في الشارع حرًّا دون أن يصاب بأذى، وفي أثناء ذلك كانت كاترين توعز إلى قائد الحرس بملازمة مكانه لتذهب هي وحدها وترى ماذا يحدث في القصر قائلة:

– انتظر أنت هنا سأذهب وحدي.

– ولكن الخطر المحدق بك يجبرني على مرافقتك.

– كلا. لا ضرورة لذلك، فالملوك تحميهم قوة عجيبة خفية أكثر فاعلية من سيف الإنسان.

فظل ضابط الحرس جامدًا في مكانه، وأخذت كاترين القنديل، وراحت تخترق دخان الممشى المؤدي إلى غرفة ملك النافار، وكان صوت عميق سائدًا على المكان، حتى وصلت إلى المدخل الخارجي، واجتازت العتبة فوجدت أورتون مغشيًّا عليه، فقالت في نفسها:

– لابد من أن أجد معلمه قريبًا منه.

ودخلت الغرفة الخاصة فاصطدمت رجلها بجثة، فأخفضت القنديل فإذا بها أمام الحارس الذي حطم دي مواي جمجمته، وعلى بعد ثلاث خطوات، وجدت الضابط يلفظ آخر أنفاسه على إثر إصابته برصاصة قاتلة، وأيضًا رأت في السرير رجلًا أصفر الوجه ينزف دمه من عنقه يجرب أن ينهض، إنه مورفيل فسرت قشعريرة غريبة في عروقها، فشرعت تلتفت هنا وهناك علّها ترى الجثة التي تنشدها ولكن، دون جدوى.

عرف مورفيل الملكة الأم فألقى عليها نظرة اليأس والاستغاثة، فقالت:

– أين هو؟ ماذا جرى له؟ هل هرب من بين أيديكم؟ تكلم.. قل لي كلمة واحدة فقط.

ولكن مورفيل أغمى عليه دون أن تتلفظ شفتاه بكلمة، وتلفتت كاترين حولها لترى جثة مطروحة على الأرض والدم يسيل منها، وجربت أن تتكلم إلى مورفيل ولكن لم تتلق إلا أذنًا صماء وجسدًا هامدًا، فنزعت من سترته الورقة المكتوب عليها أمر القبض على ملك النافار موقعة من ملك فرنسا، وأخفتها في صدرها. وإذ همت في الخروج كان الدوق النسون قادمًا ليرى ماذا حدث فالتقت به على الباب فقالت:

– أنت هنا؟

– نعم. وماذا جرى، يا جلالة الملكة.

– عد إلى غرفتك وستعرف كل شيء فيما بعد.

وكان النسون على بينة مما يحدث، إذ كان قد رأى رجلًا يرتدي رداء

أحمر فظنه "لامول"، ولكنه ما لبث أن تأكد بأنه دي فوليني، وما إن رأى مورفيل يدخل مع رجاله حتى طار فرحًا ظنًّا منه بأنه سيخلص من الاثنين معًا، ملك النافار ودي مواي، ولكن سرعان ما تبخرت أحلامه، إذ رأى صاحب الرداء الأحمر يخرج من اللوفر وهو يصيح:

– إنهم يقتلون الناس على حساب الملك.

فتمتم النسون يقول لنفسه:

– إنه مخطئ إنهم يقتلون الناس على حساب الملكة.

وعاد إلى غرفته كما أوعزت إليه أمه متظاهرًا بالهدوء والطاعة وبدافع اليأس، نادت كاترين رئيس الحرس وأمرته بأن ينقل الجثث ويحمل مورفيل إلى منزله، وقالت لرئيس الحرس: "لا توقظ الملك".

وعادت إلى غرفتها ورأسها منخفض وهي تمتم:

– لقد نجا، هذه المرة أيضًا.. إنه سيملك، سيملك، ولا شك.

الفصل السابع عشر

عاد الملك شارل مع هنري دي نافار بعد أن قضيا يومين خارج قصر اللوفر، اصطحبه الملك إلى دار عشيقته "ماري موشيه" القائم في مكان منعزل، حتى إذا دخل ملك فرنسا إلى الدار انحنى على جبين طفله يقبله – ولو كان هذا الطفل شرعيًا – لملك مكان هنري الثالث وهنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر، ولقد أصبح فيما بعد "دوق انجوليم" الذي توفى سنة ١٦٥٠.

أما الملكة الأم فلما فشلت خطتها قضت ليلتها في أرق مرير، حتى إذا طلعت الشمس قصدت غرفة ابنها ملك فرنسا، وهمت بأن تدخلها بحرية مطلقة كالعادة، ولكن وصيفة الملك تبعتها قائلة إن الملك أمرها بأن لا تسمح لأحد بالدخول، ولما أصرت الملكة الأم مهددة متوعدة أجابتها الوصيفة بأنها ستتنصل من المسؤولية على أساس أن تصدر الملكة الأم أمرًا مرسومًا من قبلها بالدخول، فلما فعلت ودخلت الغرفة وإذا لم تجد أحد أيقنت أن الملك خارج اللوفر، فجلست تنتظر، حتى وصل موكب الملك، ولما رأت ولدها مع هنري دي نافار قادمين معًا أدركت كل شيء، وما إن ولج الملك باب غرفته حتى استقبلته بقولها:

– أود أن أتحدث إليك وحدك.

فاعتذر ملك النافار وخرج.

قال شارل:

– إنك، ولا شك، تنتظرينني لتعاتبيني، فكيف أترك رجلًا أنقذ حياتي؟ كيف أتركه يموت أو يذهب إلى سجن الباستيل؟

– لقد أفسدت خطة محكمة كنت قد رسمتها للخلاص منه.

– يمكنك أن ترسمي عشرين خطة غير تلك التي رسمتها، وهذه المرة، سأدعمك.

– لقد فات الأوان فمنذ الآن وصاعدًا، سيتخذ دائمًا حذره.

– حسنًا! يا أمي، لماذا تحقدين عليه؟

– إنه يتآمر.

– هذه هي شكوكك الدائمة، أو ليس أحد سواه يتآمر في هذا المقر الملكي الذي يدعى قصر اللوفر؟

– ولكنه هو رأس المتآمرين.

– إلى هذا الحد!

– هنالك طريقة واحده تنفعني..

– وما هي؟

– اسأله من كان في غرفته، هذا المساء.

– في غرفته، هذا المساء.

– نعم. وإذا صارحك القول.. اعترف عندئذ بأني مخدوعة.

– وإذا كانت هنالك امرأة.. لا يمكنني أن ألح.

– امرأة؟

– نعم

– امرأة قتلت اثنين من حرسك، وجرحت مورفيل جرحًا خطيرًا.

– المسألة جدية، إذن.. جرى الدم في الغرفة؟

– وثلاث جثث ممددة على الأرض.

– ومن فعل ذلك؟

– هرب سالمًا معافى.

– إنه رجل شجاع أود أن أتعرف عليه.

– كان يرتدي رداء أحمر.

– أعرف واحدًا له هذه الصفات في هذا البلاط.

خرجت كاترين وظل الملك وحده يصفر لحن الصيد كالعادة، وأما هنري دي نافار فما إن دخل الممشى المؤدي إلى غرفته حتى شرعت معالم معركة الأمس تتجلى لناظره، ولكنه ظل مرتابًا في الأمر حتى دخل غرفته، وشاهد آثار الدم في كل مكان، والأشياء مبعثرة هنا وهناك، عندئذ فهم قصد الملك وقال في نفسه:

– "أرادوا أن يغتالوني".. ودي مواي المسكين، فماذا جرى له؟

ثم انتقل إلى غرفة الدوق النسون، وسأله إذا كان قد لاحظ شيئًا فأجابه قائلًا:

– أجل. ولقد هرب دي مواي بعد أن بطش بالمهاجمين.

– يا له من شجاع! لقد جاء ليهرب بك، يا أخي، إلى بلاد النافار لتعتلي العرش الذي تنازلت لك عنه.

– هل أنت متأكد أنه دي مواي؟

– إنه يرتدي الرداء الأحمر.

– ودي لامول يرتدي رداء مثله.

– على كل حال مضى الحادث بسلام بالنسبة لنا.

قال هنري دي نافار قوله هذا واتجه إلى مدخل سري ليدخل على مارغريت ويقول لها:

– كم أنت ساهرة على أصدقائك! هنالك خبر مزعج.

– ماذا؟

– أحد رجالنا في السجن.

– من!

– دي لامول

– ولماذا؟

– للحادثة التي جرت أمس.

– أية حادثة؟

– ألم تسمعي ما حدث في اللوفر بالأمس.

– كلا!

– تهاني، يا سيدتي، إنك تنامين دائمًا باطمئنان.

– ماذا جرى؟

– أعطت والدتك الأمر للسيد مورفيل وستة رجال للقبض عليَّ.

– عليك أنت؟

– نعم.

– ولماذا؟

– ومن يدري؟

– لم تكن في الغرفة؟

– كلا.. اصطحبني الملك معه.. وعلى كل حال، كان واحد سواي في الغرفة.

– ومن هو؟

– الكونت دي لامول وقد قتل رجلين وجرح مورفيل جرحًا بليغًا.

– قتل رجلين وجرح مورفيل.. مستحيل!

– ماذا؟ أتشكين في شجاعته؟

– لا. مستحيل وجوده في غرفتك.

– لماذا هذا المستحيل؟

وارتبكت مارغريت بماذا تجيب، ولكنها تمالكت نفسها وأجابت:

– لأنه كان في الخارج.

– إنه يرتدي الرداء الأحمر.

– هنالك آخر يرتدي هذا الرداء.

– على كل حال، إن كان هذا أو ذاك فسينفضح أمرنا.

– لن يقول شيئًا.

– إذن، سيتم كل شيء لصالحنا.

– تنسحب؟

– أجل. هذا كل ما كنت أود أن أقوله لك.

– هل تذهب؟

– جربي أن لا يفضحنا صاحب الرداء الأحمر.

– يا إلهي! مسكين هذا الفتى!

– أجل.. مسكين دي لامول، إنه خادم لطيف جدًا.

كان لهذا الحادث صداه البعيد، فتقابل الملك مع أمه وملك النافار الذي شرع بتوجيه الأسئلة إلى الملكة الأم، سائلًا إياها عن أسباب حقدها

عليه.. بينما الملكة الأم تحاول إلصاق التهم إليه وكلما اتضحت براءته نسبت إليه تهمة جديدة باطلة، وانتهت المقابلة بأن خرج ملك النافار وهو يقول للشارل التاسع:

– سأبقى في اللوفر مهما جرى، وأي أمر أتوقعه اللقاه بطيب خاطر.

ثم جرى اجتماع آخر بين الملكة الأم ومارغريت والملك، أكدت مارغريت بأن "لامول" لم يكن هو القاتل، واعترفت بأن "لامول" كان عندها عندما وقع الحادث، لذلك قرروا أن ينتظروا مورفيل حتى يستعيد شيئًا من وعيه ليرشدهم إلى الفاعل، ولكنهم استشاطوا غيظًا من "لامول"، إذ تبين لهم أنه عشيق لمارغريت، وداهموا غرفتها ذات مرة على علم بأن "لامول" هناك، وراحت مارغريت تجرب جميع الطرق لإنزاله من الغرفة إلى الشارع دون أن يدري به أحد، ولقد تسنى لها ذلك بأن أتت بسلم من الحبال وربطته بالشباك حتى الأرض، وهكذا نجا لامول باعجوبة.

وقد اجتاحت موجة عارمة من الانتقام قصر اللوفر وآخرها هي التالية:

قال دوق دنجو أخو الدوق النسون لأمه:

– عزي ابنك، يا أماه.

– ولماذا؟

– تعرفين أن سفراء مقاطعة بولونيا جاءوا يطلبون تتويجي ملكًا عليهم.

– وما يمنع وأنت ما زلت فتى، وقد ربحت من المعارك ما ربحه الإسكندر وقيصر؟

– ولكن أكره هذه المقاطعة، يا أماه.

– ولكن مصلحة بلادك قبل مصلحتك.. ومن تتوج ملكًا إذن!

– أنا ابن فرنسا المدلل، أعيش بين سكان قصر اللوفر بانتظار أن أصبح ملك فرنسا، فهل أقبل بأن أكون ملكًا على مقاطعة؟

– أقبل، يا بني، وكن ملكًا على بولونيا، وأنا أتدبر أمرك بعد ذلك.

– ألا يرضى الملك بتعيين أخي مكاني؟

– مستحيل.

– إنه يحسدني.. إنه الملك أخي بالاسم فقط.

– أجل. يحسدك، يا بني.

– قلت يا، أماه، إن نجمه يشير على أنه سيموت فتيًّا.

– أمر التنجيم غير واقعي أقبل بأن تكون ملك بولونيا، وبعدئذ، لكل حادث حديث.

وخرجت الملكة الأم تقصد ابنها شارل لتقول له:

– متى ستكون حفلة التتويج؟

– بعد أسبوع.

– ولماذا هذا التهافت؟

– سوف أزود أخي بالمال والجواهر حتى لا يقول البولونيون إننا نتهافت على عرشهم.

– إذن، هدفك أن ترى فرنسيا يعتلي عرش بولونيا.

– أجل.

– المهم أن يعتلي العرش رجل فرنسي كائنًا من كان.

– إن البولونيين عرفوا من يختارون.. إنها أمة عسكرية، وأخي بطل معارك سابقة، ماذا، فهل أرسل لهم دوق النسون الجبان الذي يهرب من مجرد طلقة المسدس؟ أعرف أن أخي سينال استحسانهم ولسوف يهتفون له قائلين: يحيا الملك! يحيا المنتصر. ولا أنكر بأنه ربما تعرض لخطر الموت.. ولكنها ميتة شريفة، ميتة الأبطال.

ارتعشت الملكة الأم عند سماعها الجملة الأخيرة، وقالت:

– قل صراحة بأنك تود إبعاد أخيك.. وأنك تسعى للقضاء عليه.

– أريد أن أبعده، وأنا لا أحبه، ولماذا أحبه؟ هل يحبني هو؟ وأنت، هل تحبينني؟ ماري توشيه ووصيفتي تحبني لا أحب أخي.. لا أحب إلا نفسي.. ولأخي أن يفعل ما يشاء.

– بما أنك تصارحني فإني أجيب بأنك ملك ضعيف المراس، ولا تحسب للمستقبل حسابًا.. تريد أن تبعد أخاك عن العرش، وإذا وقع لك حادث سوء تترك عرشك لمن؟ دوق النسون، كما تقول، جبان، وملك النافار يتربص بنا..

– وماذا يجديني نفعًا من ركب العرش بعدي؟ قلت لك إني لا أحب أحدًا، ولكن، هنري هذا أحبه.. إنه لن يخونني وأقسم على ذلك.. أو لم

ينقذني من الموت؟ وعندما أموت سأعلنه ملكًا لفرنسا.. فبدلًا من أن يسخر مني وأنا جثة هامدة كما سيفعل إخوتي، سيبكيني أو على الأقل لن يسخر مني.

فصاحت الملكة الأم كالمجنونة:

– هنري دي نافار ملك فرنسا! لذلك تود أن تبعد ابني.

– ألست أنا أيضًا ابنك.. أما ملك فرنسا فليس ابنك، إن ملك فرنسا لا إخوة له.. ولا أم.. ليس له إلا رعايا..

– إنك تفسر قولي خطأ.. قلت كلمة ابني لأنه سيبتعد عني لا أقل ولا أكثر.

– أجل. سيبتعد عنك وسيغادر فرنسا بعد يومين، وإذا قلت كلمة واحدة أرسله غدًا، وإذا لم تكفي عن تهديدي بعينيك سأرسله في الحال، وإذا لم تحني جبينك سأخنقه كما كنتم تودون أن تخنقوا عشيق مارغريت.

– مسكين يا ولدي! أخوك يود أن يقتلك.. كن مطمئنًا فأمك ستدافع عنك.

– تهددينني وجها لوجه! سأقتله وأرتاح منه.. سكين! سيف..

وشرع يفتش عن أي سلاح وإذا لم يجد إلا الخنجر الذي تحمله أمه في سيرها.. ارتمى عليها وانتزع الخنجر منها وخرج من الغرفة ليضرب به أخاه "هنري دانجرا" حيثما وجده.. ولكنه ما إن وصل إلى الرواق حتى خارت قواه ورمى السلاح أرضًا، وصاح صيحة هائلة ثم ارتمى على الأرض.. وفي الوقت نفسه جرى الدم من أنفه وشفتيه وتمتم:

– يا يسوع! أيقتلونني؟

وكانت "كاترين" قد لحقت به، وإذا رأته في مثل هذه الحال، صاحت:

– إن الملك في حالة خطرة.. النجدة.. النجدة..

وهرع الخدم والضباط يلتفون حول الملك، وسبقت الجميع امرأة وهي تدفع الناس ثم أمسكت بشارل وهي تقول:

– يقتلون حبيبنا شارل؟ ومن هو هذا الذي يريد قتله؟

وقال الطبيب الذي طلبوه في الحال، قال:

– إن الملك يعاني مرضًا شديدًا

وقالت الملكة الأم في نفسها:

– برضاه أم بالرغم منه، لابد له من إعطاء مهلة.

ثم خرجت لتجتمع بابنها الذي كان ينتظرها بفارغ صبر، ليعرف نتيجة هذه المقابلة المهمة بالنسبة له.

الفصل الثامن عشر

سألت الملكة الأم رينيه:

–كيف السبيل لمعرفة مدى عمر إنسان؟

فأجابتها:

– أولًا، معرفة يوم ولادته ثم سنه ثم في أي برج مولود.

– ثم ماذا؟

– الحصول على قليل من دمه ومن شعره.

– إذا فعلت كما تقول فهل يمكنك التكهن بيوم موته؟

– نعم.. تقريبًا

– معي قليل من شعره، وسآتيك بشيء من دمه.

– هل هو مولود نهارًا أم ليلًا؟

– في الساعة الخامسة وثلاث وعشرين دقيقة مساء.

– إذن، احضري عند الساعة الخامسة لأن هذه العملية يجب أن تتم في ساعة ميلاده.

– حسنًا، نكون معًا في الوقت المحدد.

ذهبت كاترين إلى غرفة ابنها وسألت الوصيفة والملك هاجع على ذراعها وهي لا تتحرك من مكانها خوفًا من إزعاجه:

– هل قصده الطبيب؟

– نعم. ولقد أغمى عليه مرتين من شدة الفصد.

– وأين هو هذا الدم.

طرحت كاترين سؤالها هذا وهي واثقة من أن الطبيب لابد من أن يعود ليفحص الدم، ولما أرشدتها الممرضة إلى مكان الدم، شرعت تفحصه شأن من له إلمام بالطب لكثيرات من الأميرات والملكات في ذلك الزمان، وملأت زجاجة صغيرة كانت قد أخفتها في جيبها وعادت إلى غرفة الملك الذي ما إن أحس بوجودها حتى فتح عينيه وقال لها:

– أنت هنا ؟ حسنًا، قولي لابنك العزيز.. إلى الغد.

– سيتم ذلك حين تشاء، أما الآن فهدئ أعصابك ونم.

وإذ خرجت الملكة الأم من غرفة الملك وسمعها تغلق الباب ورآها، صاح قائلًا:

– إلي بالأختام، وادع رجال البلاط، أيها الوكيل.

بعد ذلك اجتمع البلاط وقرروا أن تكون حفلة التتويج بعد خمسة أيام، وليس في الغد ودقت الساعة تعلن الخامسة، وإذا بالملكة الأم والساحر رينيه والدوق هنري دانجر يجتمعون معًا، وقالت الملكة الأم:

– هل فعلت شيئًا هذه الليلة؟

– نعم. وفي النجوم إشارات إلى ماضي الرجل الذي تسألين عنه فهو قوي الشكيمة، وذو بأس.. هو قدير جدًا، قضى ربع قرن من حياته،

وكان دائمًا موفقًا منتصرًا ونال من السماء المجد والثراء.

- ربما

- هل أتيت بالشعر والدماء؟

- هذه هي.

فبدأ رينيه عمله قائلًا:

- ها أنا أراه يتألم آلامًا مبرحة.. هل تسمعين أنينه.. إنه يطلب النجدة.. هل ترين كيف تحول كل شيء حوله إلى دماء؟ أو لا ترين أن معارك هائلة تدور حول سرير موته.. هذه هي الرماح! هذه هي السيوف!

فقالت كاترين وهي تمسك بيد هنري دانجر الذي دفعت به لينحني كثيرًا فوق المجمرة السحرية:

- هل يطول الزمن؟

فاقترب رينيه من مجمرته وشرع يتمتم كلمات خفية ثم قال:

- سنة واحدة!

ثم سكب آخر نقطة دماء وأتبعها بآخر شعرة وقال ورائحة البخور الممزوجة برائحة الدم والشعر المحروقين تعبق في الغرفة:

- ولكن الرجل سيترك ذكرًا مجيدًا وأثرًا طيبًا.

- وكيف عرفت ذلك؟

- ظلت إحدى النجوم، محجوبة بغيمة سوداء.

– هنالك أمل، إذن.. هل تصر بأنه يموت بعد سنة؟

– كما أننا نحن ثلاثة أحياء اليوم وسنمسي يومًا أمواتًا.

– قلت إنه دم ذكي يشير إلى حياة طويلة؟

– أجل. إذا جرت الأمور مجراها الطبيعي.. أو ليس ممكنًا وقوع حادث.

فقاطعته الملكة الأم قائلة لهنري:

– هل سمعت؟ حادث!

والتفت دوق هنري دانجو إلى رينيه وقال له وهو يناوله كيسًا من دراهم:

– شكرًا.

وخرج تصحبه أمه وهو يقول لها.

– هل سمعت؟ حادث!

– وأكون أنا بعيدًا من هنا مسافة أربعة وعشرين كيلو مترًا.

– ثمانية أيام فقط تكفي لعودتك.

– ربما لم يسمحوا لي بالعودة.. هذا ما لا أستطع احتماله، يا أمي.

– ربما كان هذا هو الحادث نفسه الذي تحدث عنه رينيه.. أو ليس الملك هاجعًا على سرير الامه منذ الأمس عد إلى غرفتك، يا بني.. وأنا سأسير من باب حصن الراهبات فإنهم ينتظرونني هناك.. عد إلى غرفتك وإياك أن تسيء إلى أخيك إذا رأيته.

* * *

حان موعد التتويج، وشرع السفراء يتوافدون، والسكان يتجمهرون، وحضر دي مواي متنكرًا في زي غريب حتى إن هنري دي نافار نفسه لم يستطع أن يتعرف عليه، ودي مواي في لحيته البيضاء يبدو شيخًا مهيبًا أكثر من أن يكون زعيمًا.

وبدأت الخطابات حتى جاء دور شارل التاسع وعقبه "لاسكو" زعيم البولونيين الأول، فانحنى أمام الدوق دانجو معلنًا بأن الشعب البولوني يقدم عرشه للدوق دانجو، فرد الدوق بكلمة قبول فترحيب ثم حمل الملك شارل التاسع ووضعه على رأس أخيه الجاثي أمامه، وتصاعدت الأصوات:

– تتويج ألكسندر – ادوار – هنري دي فرانس دوق دانجو ملكًا على بولونيا.. فليحيا ملك بولونيا.

وأخيرًا، جاء دور الملكة مارغريت، فوقفت خطيبة تنطق باللغة اللاتينية، ولكل جملة من كلامها معنى مزدوج واحد موجه للدوق دانجو وآخر خفية للسيد دي مواي، وأما الملكة الأم فاسترعى انتباهها هذا العجوز، فشرعت تتأمله وتقول في نفسها من عساه يكون؟ وهي لكذلك وإذا برئيس التشريفات يقترب منها ويناولها قطعة من الساتان تحتوي على ورقة مطوية فتحتها وقرأت:

– استطاع مورفيل أن يكتب بفضل دواء قدمته له اسم بطل المعركة السابقة، إن دي مواي.

فشرعت الملكة الأم تمتم؟ دي مواي! وهذا العجوز من يكون؟ ثم اقتربت من رئيس الحرس، وقالت له:

– هل ترى هناك عجوزًا أبيض اللحية؟

– أجل، يا سيدتي.

– حسنًا، راقبه دائمًا.

– أرى أن ملك النافار يبادره بالإشارة.

– تمامًا. انتظره على باب القصر مع عشرة رجال، وعندما يخرج وجه إليه الدعوة باسم الملك ليتناول الطعام في القصر، ثم سر به إلى إحدى الغرف واحجزه فيها. وإذا حاول أن يقاوم فأت به حيًّا أو ميتًا.

ومن حسن الحظ أن هنري دي نافار لم يهتم كثيرًا لخطاب الملكة مارجو، بل كانت نظراته منصبة على الملكة الأم، وإذ رأى الملكة المذكورة تتطلع دائمًا إلى الرجل العجوز أوجس خيفة ولاسيما عندما شاهدها تتحدث سرًّا مع رئيس الحرس، فتأكد بأن هنالك مؤامرة على دي مواي فأشار عندئذ إلى دي مواي إشارة معناها "انكشفت، اهرب في الحال".

فهم دي مواي معنى الإشارة أما الملكة ورئيس الحرس فلم يفهما شيئًا، وفي لحظة اختفى دي مواي ومع ذلك لم يطمئن بال ملك النافار عليه حتى شاهد رئيس الحرس عائدًا إلى الملكة الأم ليقول لها:

– فاتنا الوقت، وهرب العجوز.

وكان الدوق دانجو موجودًا وكأنه لم يكن.. وانتهت الحفلة فقام الملك متكئًا على ذراع الطبيب "انبرواز باريه" واتجه نحو غرفته، وأما الملكة الأم فكانت حزينة وكذلك الدوق دانجو الذي كان ينتظر بفروغ صبر حتى يخرج المحتفلون ليسرع لاحقًا بأمه ويقول لها:

– إني محكوم عليَّ بالموت في المنفى.

– هل نسيت ما قاله الدجال رينيه؟ لن تلبث طويلًا هناك.

– أرجوك، يا أمي، أن تبلغني عن أقل حدث يختص بتاج فرنسا قد يقع وأنا بعيد من هنا.

– كن مطمئنًا.. سيكون الحصان جاهزًا أبدًا والرسوم على أهبة الاستعداد للذهاب لبولونيا عند وقوع أي حادث.

* * *

قلب الكونت كوكوناس الأرض رأسًا على عقب بحثًا عن صديقه دي لامول دون جدوى، وسألته الملكة مارجو عنه فوجدته خيرًا، وأخيرًا اجتمع بصديقته الدوقة دي نيفير التي شرعت تؤنبه على استخفافه بها واهتمامه بالبحث عن صديقه ليل نهار فأجابها.

– إني أحبك أكثر من كل نساء العالم، وأحب لامول أكثر من كل رجال العالم.

وهما كذلك في أخذ ورد وإذا بصوت يتصاعد فجأة:

– حسنًا.. كفى!

فالتفت كوكوناس إلى مصدر الصوت فصاح متعجبًا:

– دي لامول!

وانطلق بسرعة نحو صديقه حتى إذا وصل عانقه طويلًا ثم انحنى وقبل

طرف ثوب الملكة مارجو شاكرًا إياها على رعاية صديقه، الذي جاءته به إلى بيت صديقته، ولم يشأ كوكوناس أن يفارق صديقه وانتهى الأمر بأن كتب كوكوناس رسالة إلى الدوق النسون يعتذر منه:

"تعرف يا صاحب السمو، وأنت الغارق في مؤلفات الأدباء القدامى، تعرف، ولا شك، أوريست وبيلاد اللذين كانا بطلين شهيرين بسعادتهما وصداقتهما. صديقي لامول، ليس أقل تعاسة من أوريست؟ وأنا لست أقل محنة من بيلاد، إن له مشاغل مهمة معي تتطلب مساعدتي، من المستحيل إذن، أن أفترق عنه، ولا أفقد الأمل من قبول اعتذاري.

خادمك المتواضع والمطيع.

اينيبال الكونت دي كوكوناس

"الصديق الدائم للسيد دي لامول"

وإذ انتهى من رسالته قرأها بصوت عال أمام لامول الذي هز كتفيه استخفافًا، وسأله كوكوناس غير مكترث لما صدر عن دي لامول:

– ما رأيك؟

– أقول بأن السيد النسون سيسخر منا.

– منا؟

وأكمل كوكوناس:

– مهما حدث فليحدث سأرسل الكتاب غدًا صباحًا، أين ستنام بعد خروجنا من هنا؟

– عند السيد لاهورييز.. في الغرفة التي شئت أن تذبحني فيها عندما لم نكن "أوريست وبيلاد".

حسنًا، وسأبعث بالكتاب مع صاحب الفندق، وفي أثناء ذلك ارتفع صوتا الأميرتين معًا قائلتين:

– أين هما أوريست وبيلاد؟

فأجاب كوكوناس:

- بيلاد وأورست يكادان يموتان حبًّا وجوعًا.

وفي الواقع، حمل لاهورييز الرسالة عند الساعة التاسعة صباحًا إلى قصر اللوفر.

الفصل التاسع عشر

قال دي مواي للفتى أورتون.

– تذهب إلى السيدة دي سوف وتعطيها هذه البطاقة، وإذا لم تجدها فلتضعها وراء المرآة ثم تنتظر في قصر اللوفر.

فأجاب أورتون.

– حسنًا فهمت.

كان مورفيل مختبئًا يستمع لما يجري من حديث، وهم أن يطلق الرصاص على دي مواي ولكن اتفق أن تلاعب الهواء بسترة دي مواي فترآءى من تحتها درع يلمع فقال مورفيل لنفسه:

– إذا استقرت الرصاصة في الدرع، وهجم علي وأنا ما زلت جريحًا فماذا يكون مصيري؟

ولكنه فكر بأن الإفضاء يسر البطاقة ربما كان أكثر أهمية من حياة دي مواي نفسه..

وسار دي مواي من جهة بينما مورفيل قصد اسطبله فأسرج حصانًا وركبه باتجاه قصر اللوفر يخبر الملكة الأم بما سمع، فنقدته أجرته وما هي إلا ربع ساعة من الوقت حتى وصل أورتون ودخل غرفة السيدة دي سوف وإذ لم يجدها جلس يتسامر مع داربول، وانتهز الفرصة ليدس البطاقة وراء المرآة وما كاد يسحب يده حتى ظهرت أمامه الملكة الأم وقالت له على الفور:

– ماذا تفعل هنا، أيها الفتى الصغير؟

– جئت أشكر السيدة دي سوف لمساعدتي في أثناء الموقعة التي حدثت في غرفة ملك النافار.

– إذن، أنت أمين جدًا؟

وأرادت الملكة أن تتأكد فيما إذا كان أورتون قد وضع البطاقة وراء المرآة، ولكن أورتون وقد سمع ثلاث دقات على سطح الغرفة وكانت هذه إشارة الخطر، وأسرع نحو المرآة فتركته الملكة إذ اتجاهه إلى الممكن جعلها تثق من أنه سيضع البطاقة هناك بينما هو ذهب ليسحبها ويخرج وما كاد يفعل حتى هرعت الملكة الأم إلى وراء المرآة، وإذا لم تجد شيئًا صاحت في رئيس الحرس:

– إليَّ بهذا الفتى الذي خرج الآن..

وكان أورتون لا يزال على الدرج فأعاده رئيس الحرس إليها، وهي تفكر في نفسها بأن بطاقة مرسلة إلى ملك النافار من السيد دي مواي لابد من أن تكون ذات أهمية كبرى، وما إن رأته أمامها حتى قادته إلى غرفة سرية ثم شرعت تغريه بالوعود وتقدم له الدراهم بكثرة، ولكنه أنكر كل شيء، وإذا لم يجد بدًّا أمام إلحاح الملكة وخوفًا من أن تفتشه بالقوة أخذ البطاقة وهم بيلعها، ولكن يد الملكة كانت أسرع من يده فأمسكت به وقالت له:

– لا تفعل.. بما أنك رسول أمين إلى هذا الحد سأدعك تعود إلى ملك النافار وأزودك بمفاجأة فأنا أحب الأمناء.

ونقدته بعض الدراهم وقالت له اخرج بسلام، وما إن خطا خطوتين حتى زعق زعقة قوية، واختفى في دهليز عميق كانت الملكة الأم قد شدت على زر كهربائي فانفتحت الهوة وسقط الصبي بينما هي نزلت السلم إلى أعماق الهوة، وأخذت البطاقة ثم رمت بالجثة نحو مجرى نهر السين الذي كانت تتسرب مياهه إلى هذه الهوة. وعادت إلى غرفتها وقرأت البطاقة:

"الساعة العشرة مساء في فندق النجمة الجميلة شارع الشجرة الجافة، فإذا كنت ستأتي فلا ترسلي جوابًا والأقل كلا لحاملها".

الإمضاء: دي مواي.

وقصدت الملكة الأم غرفة السيدة دي سوف ووضعت البطاقة مكانها، وقالت لرئيس الحرس وهي عائدة.

– لا داعي للإزعاج، لقد تكلم الصبي وإجابتي على سؤال فنقدته بعض الدراهم وتركته وشأنه.. كونوا دائمًا على استعداد، فإن أمامكم عملًا مهمًّا.

وتابعت سيرها مبتسمة ابتسامة الظفر متخيلة أن ملك النافار وقع غنيمة باردة بين يديها، ودخلت إلى غرفة الملك وقالت له:

– الإثبات لا يقبل الشك. ملك النافار يتآمر مع دي مواي.

واتفق أن دخل ملك النافار إلى غرفة الملك فرآه متجهمًا فبدأت الملكة بالحديث قائلة.

– بماذا تجيب الآن؟

فقال ملك النافار متعجبًا.

– بماذا أجيب!

– أجل البطاقة وراء المرآة..

– البطاقة!

فقال الملك عندئذ بغضب.

– أجل. إنك تتآمر مع دي مواي.

– أية موامرة تقصد؟ ادع السيد دي مواي والدوق النسون وكوكوناس ولامول تسمع الحقيقة من فم الجميع.

– أية حقيقة.

– لقد تنازلت عن عرش مملكة النافار إلى أخيه الدوق النسون ورضي هو بذلك، وهذه البطاقة هي بمنزلة دعوة للتفاهم سرًّا حول هذا الموضوع ثم عرضه على جلالتكم.

فضحكت الملكة الأم ساخرة، وقال الملك:

– سندعو أولئك الذين ذكرتهم. وبعد ذلك لكل حادث حديث.

وجاء الثلاثة ومثلوا أمام الملك إذ كانوا قد علموا أن ملك النافار موافق على مجيئهم فأسلموا أنفسهم إلى رئيس الحرس عن طيب خاطر، عندئذ قال الملك شارل لأمه:

– دائمًا يتهمونه وهو بريء.

ثم وجه الكلام لملك النافار قائلًا:

– أجل. أخي سيكون ملك النافار.. ولماذا لا يكون النافار مستقلين وعلى رأسهم الملك ما دام أنت تنازلت عن هذا العرش.

فأجابه ملك النافار:

– بكل طيب خاطر.. وهنيئًا عرش النافار لأخيك.

وهكذا، فشلت المؤامرة.. وخرجت الملكة الأم وهي تجر أذيال الخيبة.

* * *

طلب الملك شارل من رئيس حراسه أن يأتيه بأخيه الدوق "النسون" ولما مثل بين يديه قال:

– اشحذ ذاكرتك وقل لي بماذا تحلم من زمان.. أنت تفكر بشيء وتود أن يتحقق ولا تجسر أن تحدثني عنه.

– أقسم بأن لا هدف لي إلا دوام صحة أخي.

– يمكنك أن تتمنى شيئًا آخر غير صحتي فأنا في منتهى العافية.

– لا أفكر بشيء أبدًا.

– أجل. أجل، يا فرنسوا! إنك تصبو لتكون ملكًا على عرش النافار، ولقد اتفقت مع هنري دي نافار والسيد دي مواي على ذلك" ووصل الخبر إليّ.

– أقسم لك برب السماء.. أبدًا.

فقاطعه الملك.

– لا تقسم..

– إذن تود أن تنفيني.

– أنفيك؟ أي أمل أفضل لك من ذلك؟

فعض النسون شفتيه يأسًا وأكمل الملك:

– أخوك أصبح ملكًا على البولونيين، وأنت على عرش النافار، وهنري دي نافار لن يكون له شيء، وسيكون صديقا لي.

– هذا ما أطمع أنا به دعني أكون دائمًا بجانبك أنت تعلم جيدًا بأني لم أفارقك منذ حداثة سني.

– أعرف ذلك جيدًا.. ولكن من الأفضل أن تكون بعيدًا عني أحيانًا.. ولقد قررت.. ولا سبيل للعودة عن قراري، ستذهب وأنا فخور بأن يكون ملك النافار أخًا لملك فرنسا، وسنجد لك زوجة محترمة وربما وفرت لك عرشًا آخر أيضًا... والآن، يمكنك أن تذهب وسأعلن ذلك رسميًّا.

وإذا لم يجد فرنسوا لنفسه جوابًا انحنى أمام أخيه الملك وخرج، وشرع "النسون" يبحث عن هنري ليقص عليه ما حدث له مع ملك فرنسا ولكنه التقى بكاترين ففاجأها بقوله:

– هنالك خبر مهم.

فقاطعته أمه قائلة:

– أجل. ستكون ملكًا.. إن أخاك يحب هنري دي نافار ويود أن يبعدك كما أبعد أخاك ليخلو الجو له ولهنري ليجعله خليفته..

– ماذا تقولين؟

– أجل. أو لم تلاحظ تواضعه؟

– أجل. إن هنري متواضع جدًا أمام أخي الملك.. ولكي يظهر براعته في الصيد طلب مني كتابًا يتحدث عن هذا الموضوع.

وماذا قلت له:

– سأبحث في مكتبي.

– حسنًا يجب أن نجد هذا الكتاب.

– ولكني بحثت ولم أجده.

– سأجده أنا.. وأعطيك إياه لتقدمه له.

فانحنى النسون وذهب إلى غرفته، وفي هذه الأثناء تسلمت مارغريت رسالة سرية، فهرعت نحو غرفة ملك النافار بعد أن اجتازت الممر السري حيث هلك الخادم "أورتون"، وأعطته الرسالة ففضها وقرأ:

– "إذا قررت الهرب، فسيقوم الملك برحلة صيد بعد الغد بجوار نهر السين اذهب وكن مستعدًا. وعند الظهر، عندما ينشغل الملك بالصيد، اهرب وحدك مع ملكة النافار.. خمسون رجلًا بانتظاركما والسيد دي مول وكوكوناس أيضًا. إلى اللقاء!".

وقال هنري لمارغريت:

– هل ستكونين مستعدة؟

– أجل. وستحضر لي عرشًا يليق بي.

* * *

ذهب النسون إلى غرفة أمه يسألها عن الكتاب المنشود إلى هنري دي نافار فقالت له:

– اسمع لابد من القضاء على هنري دي نافار وقد وجدت طريقة خفية تنقذنا منه على أهون سبيل.. إنه كتاب الصيد.. تقدمه له فيصاب بمرض خبيث ويموت بعيدًا عنا.

وأكملت الملكة:

– وهل علمت أن هنالك مؤامرة تدبر في الخفاء ليهرب ملك النافار مع مارغريت في أثناء حفلة الصيد بجوار نهر السين؟

– وأختي هل تذهب معه.

– أجل.. ولكن مارغريت ستعود إلى القصر أرملة وحرة.

– هل أنت متأكدة بأن هنري سيموت؟

– الطبيب الساحر الذي قدم لي الكتاب أكد لي ذلك.

– هذا الكتاب، أين هو؟

دخلت الملكة إلى غرفة سرية وجاءت بالكتاب وقدمته للدوق النسون الذي أخذه وقال لها:

– أرى أن هنري دي نافار ما زال في البلاط، سوف أدخل إلى غرفته وأضعه على الطاولة ومتى جاء رآه وقرأه..

– أسرع.. أسرع..

وهرع النسون نحو غرفة هنري ووضع الكتاب على الطاولة مفتوحًا على صفحة صيد.. وعاد مسرعًا إلى غرفته، وإذ سمع وقع خطوات أيقن أن هنري عائد إلى شقته فأغلق الباب على نفسه وشرع ينتظر النتيجة على أحر من الجمر..

وإذ طال انتظاره، وفرغت جعبة صبره هم بالخروج، ولكنه سمع وقع أقدام عندئذ تأكد بأنه كان مخطئًا في المرة الأولى، إذ لم يكن القادم هنري بل أحد سواه.. أما الآن فهو بنفسه عائد إلى غرفته، وراح النسون ينتظر من جديد..

وأخيرًا، قرر الذهاب لمقابلة أخية الملك والتحدث إليه بشأن رحلة الصيد.. وما إن دخل حتى أخذت الدهشة منه كل مأخذ، إذ رأى الملك يقرأ كتاب الصيد فشرع يتمالك نفسه شيئًا فشيئًا حتى استطاع أن يسأل أخاه الملك قائلًا:

– من أين لك هذا الكتاب، يا صاحب الجلالة؟

– قصدت غرفة صديقي هنري لأرى فيما إذا كان مستعدًا لرحلة الصيد، فلم أجده وعلمت أنه في الإسطبل يحضر الجياد... ولكني وجدت كنزًا ثمينًا هو هذا الكتاب..

وتمتم النسون في نفسه: لقد قرأ أخي صفحات عديدة، وإذا كانت صفحات الكتاب ملتصقة بعضها ببعض فكان لابد من أن يلحس إصبعه ويقلب الصفحة وفي كل صفحة كان يمتص شيئًا من السم دون أن يدري.

الفصل العشرون

فشلت خطة رحلة الصيد إذ ما كاد ملك النافار ومارغريت يقتربان من المكان المعد للهرب مع رجال النافار حتى كانت الملكة الأم قد أصدرت أمرًا من الملك سلمته إلى ضابط القصر وأمرته بتنفيذه على الفور..

أخذ ضابط القصر الأمر وسلمه إلى قائد الجيش الذي جهز فصيلة وزحف بها نحو نهر السين، فأحس دي مواي بالخطر فأنذر هنري ومارغريت فعادا.. أما كوكوناس ولامول فوقعا أسيرين.. وهرب دي مواي مع رجاله..

ولما عاد الملك من رحلة الصيد أجرى تحقيقًا مع هنري دي نافار الذي كان يجيبه بحكمة وروية ويدحض كل الأقاويل الباطلة، وإذ لم يكن للملكة الأم أي برهان ثابت لتدين به هنري دي نافار انسحبت كالعادة وهي تجر أذيال الخيبة، أما هنري دي نافار فقال للملك بعد أن خرجت الملكة:

– مولاي، إنك تعرف أني صديق مخلص لك، وما دمت أنا بالقرب منك ستظل المؤامرة قائمة عليَّ فمن الأفضل أن تصدر أمرك بالقبض عليَّ.. ومتى أصبحت في السجن ارتاحت الملكة وأعوانها مني، وهكذا أشقى قليلًا في السجن لأرتاح بعد ذلك إلى الأبد..

ونفذ الملك طلب صديقه هنري وأمر ضابط القصر بوضعه في السجن، أما الملك شارل فكان قد عاد من الصيد وهو يصيح من شدة الألم في معدته، إذ كان السم قد فعل فعله وما إن دخل غرفته حتى نادى رينيه وسأله قائلًا:

– يا قاتل الملوك بالسم لم يردعك ضميرك عن قتلي أنا أيضًا.

فجثا رينيه على قدميه وأسرع يتوسل إلى الملك قائلًا:

– إن الملكة الأم طلبت مني أن أعطيها الكتاب، ولم تقل لي لأي سبب تأخذه.. والدواء على كل حال، متوفر لدي..

فقاطعه الملك قائلًا:

– وما هو هذا الدواء؟

– البيض والحليب فقال الملك:

– اخرج الآن..

وخرج رينيه وهو يرتعش خوفًا.

* * *

اكتملت هيئة المحكمة العسكرية العليا لمحاكمة كوكوناس ولامول، وإذ وجهت إليهما الاتهامات التي ألصقتها بهما الملكة الأم كان من الطبيعي أن ينكرا كل شيء. وفي الجلسة الثانية أحيلا إلى التعذيب، ولكن كوكوناس كان قد رشا الجلاد فوضع المطاط بين ثنايا آلات التعذيب، وتكلم كوكوناس مع ذلك، أشياء كثيرة أما لامول فرفض أن يقول شيئًا.

أما الملكة مارغريت والدوقة دي نيفير فراحتا تعملان ما بوسعهما لإنقاذ عشيقيهما، وكان من المفروض أن يمرا وهما في طريقهما إلى المقصلة بممر سري يفضي إلى كنيسه صغيرة، وفي الجلسة الثالثة صدر الحكم على دي لامول وكوكوناس بالإعدام على المقصلة.. وفي طريقهما عرجتا على الكنيسة

أما لامول فكان لا يستطيع حراكًا لأنه أبى أن يبوح بأي شيء، وأبى في الوقت نفسه أن يرشو الجلاد بينما كوكوناس كان على أحسن ما يرام.

وإذ التقى الجميع الملكة مارغريت ودي لامول من جهة، والدوقة دي نيفير، وكوكوناس والملكة مارغريت من جهة ثانية: كوكوناس وعشيقته الدوقة في أحسن حال وسيستطيعان الهرب.. أما دي لامول فعاجز عن أن يخطو خطوة واحدة لكثرة ما لاقى من التعذيب في أثناء الاستنطاق.. فما العمل؟ كوكوناس أقسم بأن يموت ويحيا مع صديقه وجرى الوداع بين الأربعة.. دموع.. وقبلات حارة وتنهدات. وأخيرًا فرغ صبر الجلاد فأخذ كوكوناس ودي لامول إلى المقصلة، وأمام جمهور غفير قطع رأسيهما.

* * *

استطاع ملك النافار أن يهرب برفقة عدد من رجاله الذين جاءوا لمساعدته، وهو في طريقه إليهم سمع صخبًا وضجيجًا قرب غرفة عشيقته السيدة دي سوف، فاعتذر من رجاله ودخل غرفتها فوجدها في حالة الحشرجة إذ كان زوجها قد انتقم لشرفه منها. فصاحت عندما رأته:

– لقد رأيتك في اللحظة الأخيرة وهذا يكفيني.

ولفظت النفس الأخير، أما هنري دي نافار فانضم إلى رجاله وهرب معهم إلى حيث لا يدري أحد، وقبل أن يتمكن من الهرب كان مورفيل قد نصب كمينًا لهنري دي نافار ولكن دي مواي جاء لمساعدته وقتل مورفيل غارسًا سيفه في بطنه، وإذا بملك النافار يقول له:

– هيا بنا.. يجب أن لا نضيع دقيقة واحدة.

فأجابه دي مواي:

– هل أترك سيفي في جسم هذا اللص؟

وعاد ليسحب سيفه فإذا مورفيل ما زال على رمق من الحياة فتلقاه بضربة قاضية صرعته في الحال، وهكذا مات مورفيل.. ومات دي مواي.. وهرب ملك النافار.

* * *

واجه الملك شارل في ساعاته الأخيرة كلا من ملك النافار والدوق النسون والملكة الأم التي علمت نوايا الملك بأن يجعل هنري دي نافار خليفة له، فأقامت رجال فرنسا على هنري دي النافار الذي لم يجد بدًّا من الهرب كما ذكرنا.. وهو في طريقه إلى بلاد النافار لحق به الساحر رينيه وقال:

– ستصبح ملكًا.

– أنا الهارب سأصبح ملكًا!

فأمسك الساحر رينيه بيده وأراه نجمة ساطور في كبد السماء ثم قال:

– هذه نجمتك ولابد من أن تصبح ملكًا لفرنسا!

كانت الملكة الأم قد أرسلت تدعو ابنها من بلاد البولونيين قبل ثمانية أيام عن موت الملك، فوصل الدوق دانجو في الوقت المحدد وبينما الناس يصيحون:

– مات الملك! عاش الملك!

وذرف الدوق النسون دمعة بعد أن هرب ملك النافار واثقًا من أن عرش فرنسا سيكون له... ولكن، ترى إن ما خاب ظنه إذ رأى أخاه قادمًا من بلاد البولونيين والناس يهتفون له.. والملكة تتمتم في أعماق نفسها:

– هرب ملك النافار... ولن يرى نفسه يومًا مستوليًا على عرش فرنسا!

* * *

وها قد أصبح هنري ملك النافار ملكًا على فرنسا كما أكد له الساحر رينيه، حتى تخيب آمال الملكة الدامية الأم، وبالفعل مرت الأيام، وتحقق قول الساحر رينيه وعاد هنري دي نافار إلى عرش فرنسا.

الفهرس